المشرق

روسية : ارضها وسكّانها

نظر جغرافيّ وتاريخيّ للاب جبرائيل لوقنك اليسوعيّ مدرّس التاريخ في كليّة القديس يوسف

لا تكمل مقالاتنا السابقة في اليابان وكورية ومنشورية الّا بذكر الأمّة العظيمة التي هي اليوم قائمة بازاء تلك البلاد النازحة في الشرق الاقصى. ولقد كنّا باشرنا بوصفها لولا انّنا كنّا ننتظر احدث واجمع المؤلفات التي كُتبت في شأنها لنستخلص منها لبابها فنفيد بهِ القرّاء.

ا° تعريف روسيّة

يروى لاسكندر الثالث قيصر الروس قولهُ « انّ روسية قارة سادسة للعالم » وهي كلمة تدلُّ على اباء ونخوة لكنّها صحيحة تثبتها الرسوم الجغرافية

روسية من اغرب بلاد الدنيا. ان قابلتها باوربّة وجدتها قليلة الشبه بها وان عارضتها بآسية تحقّقت انها تخالفها. وكذلك موقعها في الخارطة فانّ حدودها قليلة الوضوح لا تكاد تميّز اين تخورها من جهة اوربّة واين منتهاها من صوب آسية وان كانت افريقية لا تتّصل باوربّة سوى برزخ ضيّق فانّ آسية ملتحمة بها التحاماً واسعاً وليس جبل اورال مع قلّة علوّهِ وسعتهِ حاجزاً كافياً لفصل هذين العالمين. فانّ اواسط هذا الجبل يجاف فسيحة متساوية امّا جهتهُ الجنوبيّة المتّصلة ببحر قزوين فثغرٌ مفتوحٌ لا باب يقفلهُ

وروسية في تركيبها اقرب الى آسية منها الى اوربّة. وبينما ترى اوربّة الغربيّة كثيرة الضلوع. تقسمها جبالها المتعدّدة قطعاً صغيرة ترى روسية على عكس ذلك بلداً واسعاً

متشابه الجوانب والاوساط لا يحجز النظر في سهولها وصحاريها حاجزٌ من التجرد والأغوار اللهمَّ الّا اوراق السابق ذكرهُ . وان انحدرتَ شرقاً من مشارف هذا الجبل الى حوض نهر اوبي اتَّسعت بك المهامه والفلوات كما تمتدُّ بك البيد اذا زلت منهُ سائرًا الى الغرب نحو نهر ڤولغا . والجهتان متشابهتان من حيث تركيب التربة وفسحة الاراضي واشكال النبات كانهما قُدَّتا من اديم واحد . ولو شئت ان تلاقي بعض اختلاف في هيئة الطبيعة لما امكنك ذلك الّا ان تسير الى جهات بحيرة بيكال حتَّى انَّ سيبرية نفسها لا تخالف روسية الّا في الأعراض فانها تبلغ الغاية من اوصافها

ثم انَّ لروسية مع وحدة هيئة صحاريها وحدةً اخرى تفرزها عن بقيَّة اوربَّة زيد تساوي جهاتها بالبرد والحرّ وهبّ الرياح اذ ان الحركات الجويَّة تمتدُّ من اقاصي البلاد الى ابعد اطرافها بلا عائق ولا مانع . فاذا تنحت الشمال انتشرت في كل جهات روسية وبلغت البحر الاسود فهاجت بهِ مياههُ وماجت واتت بالويلات وكذلك الحرور فاذا هبَّت شُعر بلفحاتها في البحور الشمالية . وروسيَّة لسبب استواء بلادها وسعة اطرافها تذوق مرارة البرد القارص وضنك الحرّ اللافح لا يلطفهما شيء . فان بحارها أبعد واصغر من ان تخزن للشتاء حرارةً وللصيف رطوبةً وهي تبلغ من درجات البرد في الشتاء والحرّ في الصيف ما لا يبلغهُ في اوربَّة بلدٌ آخر موقعهُ في عرضها . ودونك امثلةً تبيّن الامر حسيًّا انَّ معدَّل درجات البرد في موسكو ١٠ درجات تحت الصفر في ميزان الحرارة امَّا همبورغ التي هي على التقريب في عرضها فانَّ معدَّل بردها درجتان وثمن المئة فوق الصفر . ومعدَّل برد استرخان في الشتاء عند مصبّ نهر ڤولغا ٣٠° — ومعدَّل حرّها ٤٠° + فيكون الاختلاف بين الطرفين ٧٠° وذلك فرقٌ جسيمٌ . والشتاء اطول في روسية من الصيف بكثير فربَّما دام سبعة او ثمانية اشهر فانَّ ميزان الحرارة يبقى تحت الصفر في ڤارسوڤية ستَّة اشهر وفي موسكو ستَّة اشهر ونصف وفي اركنجلسك ثمانية اشهر . وعليهِ فيصدق في روسية لقبها التي عُرفت بهِ اذ دُعيت « بلاد الشمال » وذلك لبردها خاصَّة

على انَّ الله خصَّ روسية بانهار واسعة الضفاف كانت لولاها بقيت في عداد مجاهل البلاد . والبعض من هذه الانهار كاد يبلغ سعة البحور وهي تنفذ في وسط روسية فتوصل بين جهاتها القاصية وتفتح لها ابواب العالم المتمدّن . منها الدنيپر الذي اضحى واديهِ ممرًّا عبر فيهِ التمدُّن البوزنطيّ مع النصرانيَّة من القسطنطينيَّة الى كياف . ومنها

نهر ڤولغا وهو اكبر انهار تلك البلاد واشهرها يدعوها الروس في اغانيهم « الامّ ڤولغا » يمتدُّ حوضهُ وحوض سواعده في مساحة تساوي نحو ثلاثة اضعاف مساحة فرنسة. لكنَّ منافعهُ محصورة بانصبابهِ في بحر لا منفذ لهُ وهو بحر قزوين. ولنهر ڤولغا خلجان متعدّدة فيها جُزُر لا تُحصى فيبلغ معها عرضهُ ١٥٠ كيلومترًا. وكما انَّ روسية اضحت برزنطيَّةً بنهرها الدنيبر كذلك صارت لسيوئيَّةً بنهر ڤولغا الذي عليهِ بُنيت حاضرتها موسكو. ومنها نهر نيڤا الشهير بمدينة بطرسبرج العاصمة الحالية التي ادخلت روسية في عداد الدول الاوربيَّة. وهذه الانهار مع اختلاف وجهتها في السير تصدر من نقطة واحدة وهي مشارف جبل ڤلداي (ع ٣٥٠ م) ومنهُ تتشعَّب كل الانهار الروسية فتصبّ في البحر الاسود وفي بحر قزوين وفي البلتيك ومنها ما يبلغ الاوقيانوس الشماليّ المتجلد

وقد عرفت ممَّا سبق انَّ الجهات التي تجري فيها هذه الانهار صحاري كثيرة الشبه في هيئتها وهوائها. الَّا انَّ مجاري الانهار تخصب بعض اقسام منها دون بعض فتزيد في غلَّاتها وتغيّر احوالها الاقتصاديَّة نوعًا. واذا استثنيتَ اطرافها التي لا يمكن سكناها امكنك ان تقسم الاملاك الروسية الى قسمين يميلان منحرفين من الغرب الى الشرق قسم منهما غنيّ بالغابات والاحراج والتربة النفطيَّة (tourbières) والقسم الآخر اجرد ليس فيهِ سوى السباخ والفلوات القاحلة

واقصى البلاد الروسية موقعًا في الشمال واوسعها مجالًا انَّما هي الجهات المزروعة بالغابات يدعوها الروس « poliéssa » تبتدئ عند الدرجة ٦٥ او ٦٦ من العرض الشمالي اعني عند البحر الابيض وتمتدُّ الى ما تحت موسكو والى جوار كياف. وفيها اجناس الشجر تتوالى على حسب طبائعها واختلاف الهواء من الشربين والدردار والصنوبر والسنديان والزيزفون والبلُّوط. ونصف هذه الغابات خاصَّة الدولة واحد موارد ثروتها تتَّخذ منها الاخشاب اللازمة لابنيتها ولسفنها ومعاملها لاسيَّما معامل تصفية السكَّر في پودولية ومعامل البوطاس. وقسم كبير من هذا الحشب يقنيهِ بالاصطلاء والوقود نحو مئة مليون من البشر في مدَّة الشتاء الطويل وهو لا يقلّ ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ متر مكعب. وزد على ذلك ما يُباع منهُ في الخارج وهو شيء كثير. على انَّ هذه الغابات مع اتساعها لا تزال تقل سنةً بعد سنة وربَّما قُطعت دون تروٍ فتلفت وتحوَّل موقعها الى مفازات مقفرة

اما المنطقة الخالية من الغابات فغريبة المنظر وهي اشبه بالبوادي الاسيوية تشغل جهات روسية الجنوبية وتزيد اتساعاً على قدر امتدادها من الغرب الى الشرق وهي تتجاوز جبل اورال فتلحق بقفار اسية . وهذه المنطقة كأنها لا تكاد ترى فيها ربوة تبلغ مئة متر علواً الا ما شيَّدتهُ اليد البشرية من ابنية وقبور ومعالم للطريق يعلوها الرعاة لمراقبة مواشيهم

وكما انَّ هذه البوادي لا جبال فيها كذلك لا ترى فيها اودية وانما السهول تنحدر طبقات طبقات الى مسايل الانهار كالدنيبر والدونة والفولغا وضفافها العالية على جانبها الايمن . اما الجداول ومجاري المياه المتوسطة فسيلها عادةً قليل العمق تحفره المياه وسط السهول على حسب قوة مجاريها . ولا تكاد ترى في كل هذه المهامه شجراً او قرى الا ما ندر منها والقرى كأنها على ضفاف الانهار عند منعطفاتها

على انَّ هذه المفاوز ليست كأنها خالية من النبات مجدبة . فانَّ القسم الشمالي منها جيد التربة كثير الخصب وتربتهُ سوداء ثم يليهِ قسمٌ آخر اقلُّ منهُ خصباً من جهة الجنوب الغربي الى جهة الشمال الشرقي . ثم آخراً قسم كثير الرمل تربتهُ ممتزجة بالملح لا تصلح للزراعة

والمفاوز المسودَّة التربة تستحقُّ ذكراً خصوصياً يدعونها « تشرنوزيوم » وهي التي تغني روسية بوفرة غلاتها ولعلَّها من اخصب بلاد الله واكثرها مرافق . اما سبب ثروتها فما يعلوها من الطين الاسود العلك ذي الدسومة سمكهُ بين ٥٠ سنتمتراً الى متر ونصف يتركب من الصلصال والكلس والمواد النباتية التي كانت في تلك الجهات سالفاً وهذا الطين اذا يبس اضحى غباراً ناعماً واذا ندي بالمطر تحوَّل الى تربة سوداء لزجة تأتي بغلات طائلة كغلات حوض المسيسبي الذي يُعدُّ كاحد اغراء العالم . ومع هذا لا يحسن الفلاحون الروسيُّون حراثة تلك السهول ولو قابلت بين تربتهم الخصبة وتربة انكلترة الضاوية وجدت انَّ الفلاح الانكليزي ينال من ١٦ الى ٣٠ ضعفاً بدلاً من الواحد اما الفلاح الروسي فلا يغلّ اكثر من اربعة اضعاف في الواحد (١)

---

(١) راجع كتاب العلامة لوروا الذي اخذنا منهُ عدَّة فوائد : A. Leroy-Beaulieu : *L'Empire des Tsars.*

ويرى ارباب الفلاحة انَّ هذه التربة مع خصبها سوف تفقر بعد سنين ما لم تحسَّن بالسَّماد. لكنَّهم لا يخافون من الجدب والقحولة لانَّ بين هذه التربة السوداء والبحور الجنوبية سهولًا رحبة غنيَّة ايضًا بالتربة النباتيـة اذا أُصلحت وخُصَّت بالفلاحة كادت تُشبه بخصبها الاراضي السابق ذكرها. وموقع هذه الاملاك عند اسافل مجاري الانهار التي تنصبُّ في البحر الاسود وفي بحر ازوف تنمو فيهـا الاعشاب الى طول خمسة او ستَّة اقدام او اكثر لاسيَّما في السنوات الكثيرة الامطار حتى انَّ الزَّراعين يزعمون بان فرسان التتر اختفوا وسطها فنجوا من اعدائهم وكذلك جيش كرل الثاني عشر فانهُ تشتَّت شملهُ في هذه الادغال وتلف. وقد عرف الروس صلاحية هذه الاراضي للفلاحة فحرثوا منها قسمًا وألحقوها بالسهول المسودَّة التربة ولعلَّ كل هـذه الانحاء المشبة تستحيل بعد قليل الى مزدرعات فتبلغ عمَّا قليل اراضي الزراعة في روسيَّة مسـافةً لا تقلّ عن مليون او ازيد من الكيلومترات المربعة توازي ضعف مساحة فرنسة

امَّا الاراضي المالحة والسباخ الواقعة جنوبي التربة المُغلَّة المذكورة وشمالها كالبطحاء الواسعة التي تمتدُّ بين جبال اورال الى بحر قزوين فانَّها خلوة من كل نبات ولا يمكن اصلاحها للزرع

فترى جهل الذين يدعون بورًا كل سهول روسيَّة وبواديها كانَّها كلَّها متساوية في القحولة. والصواب انَّ الروس يخصُّونها برعية المواشي ويستغلُّون منها قسمًا كبيرًا وان كان عدد سكَّانها لا يتجاوز الاربعة في كل كيلومتر مربَّع

هذا نظر اجمالي في تلك البلاد الواسعة المتباسقة الاطراف فانَّ سهلًا واحدًا يجمع بين الغابات العظيمة والاراضي المغلَّة الخصبة والبور المالح الاجرد واذا زحف عليها الشتاء بخيله ورَجله غطَّاها كلَّها بكفن من ثلوجه البيضاء فجمدت وامكن الاهلين السير على المزالق من اقاصي البلاد الى اقاصيها فيقطعون عليها المسافة الواقعـة بين اركنجل واسطرخان. وكذلك الانهار العظيمة فانَّها توصل اطراف البلاد النازحة بعضها ببعض حتى ان المسافر يستطيع بوقت قريب ان ينتقل من نوفوغورد الى كياف ومن موسكو الى قازان فكأنَّ الطبيعة نفسها اعدَّت هذه البلاد لتكون لدولة واحدة ولحاكم واحد فحدَّدت تخومها ذات الاطراف المتباينة

٢ سكان روسية

اصل الشعب الروسي من العنصر الصقلبي فيدخل بذلك في عداد الامم المعروفة بالهندوجرمانية كاللاتينيين والجرمانيين . وفيه مع ذلك خلطٌ من عناصر اخرى مختلفة لما مرَّ على تلك البلاد من الامم الفاتحة . لاسيَّما ان ثغورهـا مفتوحة وهي الطريق اللاحبة للمهاجرين من آسية الى اوربَّة . وانَّما يمتاز بينهـا العنصر الفيني (finnois) والعنصر التتري بقي منهما حتى اليوم بقايا في بعض الجهات تشهد بملكهما السابق على البلاد . واذا اعتبرنا بطرسبرج وجدنا موقعها في قلب المملكة الفينيَّة ولا يزال قسم كبير من الشعب الحدق بها فينيَّ العادات واللغة . وكذلك موسكو في عهد بنائها كانت في التخوم الفينيَّة

هذا وان الصقالبة لم يرقوا في معارج التمدُّن الَّا بعد اخوتهم من الاوربيين حتى انَّ اسم العبد في اللغات الاوربية (في الايطالية schiavo في الجرمانية sklave في الانكليزيَّة slave في الفرنسية esclave) مشتقٌ من اسم الصقالبة لكثرة ما استعبد منهم ملوك اوربَّة لاسيما الملك اوثون الكبير (٩٣٦—٩٧٣) بعـد غزوهم . وانَّما الذنب لتأخرهم عن الحضارة ليس لهم بل هو لموقع بلادهم على ممرّ الغُزاة والفاتحين الاسيويين . قال مؤرخهم الحديث لوروا بوليو (ج ١ ص ٩٥) : انَّ الروس لوقوع بلادهم على اطراف اوربَّة ولاختلاف لغاتهم ودينهم عن بقية الاوربيين بقوا مدَّة اعصار متوالية بمعزل عن التمدّن الاوربي كما انَّ آداب اليونان ورومية سالفًا لم تؤثر فيهم البتَّة . ومن ثم ليس لهم حصَّة في التقدُّم الحديث ونهضـة الشعوب الادبية وانَّما اخذوا ذلك عن السلالتين الأُخريين اعني السلالة اللاتينية والسلالة الجرمانية منذ زمن قريب فجعلوا اليوم ينشرون في الشرق هذا التمدُّن المستعار » . والحقُّ يقال انَّ الروس مع ما لهم من سعة الادراك لم يفيـدوا الامم الاوربيَّة من ثمرة مساعيهم وعقولهم شيئًا وانَّما اذَّخروا لنفوسهم ما جنـاهُ غيرهم . وهم كثيرو التشبُّه بسواهم لهم في ذلك قوَّة عجيبة ونشاط غريب

ومن أعمل النظر في هيئـة الروس ودرس تقاطيع وجوههم وسحنتهم وخواص

اجسامهم ميّز بينهم ثلاثة اصناف على حسب ثلاثة اقسام البلاد اعني روسي الشمال (le Grand-Russien) وهو صغير الجسم ابيض اللون قوي البنية حادّ الطبع مركز موطنه مدينة موسكو. وهم اكثر الروسيين عدداً يبلغون نحو ٥٥ مليوناً. ثم روسي الجنوب (le Petit-Russien) وهو كبير الجسم ليّن الطبع متّقد الفهم. عددهم نحو ٢٠ مليوناً. ثم الروسي الابيض (le Blanc-Russien) المنسوب لروسية البيضاء وهو اقرب الصقالبة دماً واقربهم الى العنصر الاصلي وهو مع ذلك اذلّهم واقرهم. وعدد هؤلاء خمسة ملايين فقط. وبهذه اقسام روسية الثلاثة يتلقّب القياصرة باسم « ملك كل الروسيّات ». والامة مع ذلك واحدة تشبه بوحدتها سهول اوطانها المتناسبة التي وصفناها

ولمّا كان دخول التمدُّن في روسية لم يأتها الّا في الازمنة الاخيرة ترى الشعب اقرب الى خشونة الطبيعة وعاداتها الفطريّة قد اثّرت فيه احوال الهواء والتربة. قلنا انّ الغالب على روسية البرد القارس في معظم السنة. فان الروسي لا ينجو من جمود الدم في عروقه الّا بالحركة ولذلك ترى الاهلين في الشتاء ينقلون مرافق بلادهم في ذلك الفصل على العربات والمزالج تساعدهم على العمل الطرق المتجمّدة التي لا يجدون بدلاً منها في الربيع الّا الاوحال وفي الصيف الّا السكك المخدّدة. غير ان هذه الحركة وهذا النشاط يخمدان في آخر الشتاء. فترى الروسي يأوي الى بيته لا يبدي حراكاً في اشهر ذوبان الثلوج فترتخي عزائمه وتجمد حركته ويخلد الى الكسل والخمول

هذا وانّ برد البلاد يقتضي طعاماً مغذّياً غنياً بالكربون والازوت ليحفظ في الاجهزة الحيويّة حرارتها المفقودة لكنّ طبيعة التربة فضلاً عن الفقر تضطرّ الجمهور بان يقتات في بلاده الشمالية بقوت اهل الجنوب كخبز الجاودار (seigle) والبرغل وطعام آخر وطني يدعونه شاتشي وهو ثريد من الملفوف المخمّر مع شيء من الفطر المجفّف والسمك المجمّد. وهذا لعمري لا يسدّ حاجة الاهلين ولذلك تراهم يستعيضون بالمشروبات ولاسيّما الكفاس (Kvass) وهو عصير الجاودار المخمّر والشاي لا يستغني عنهما احد مهما كان فقيراً. والشاي في روسية من المشروبات الطيبة التي يكثر من شربها الروس وحسناً يفعلون اذ انّهم يصلحون بها شوائب مياههم الشروبة. لكنّهم لا يكتفون بشرب الشاي صرفاً بل يمزجونه بصنفٍ من العرق او المزر

يتخذونهُ من الحبوب ويدعونهُ فدكا (Vodka) وهم يكثرون شربهُ حتى عُرف بهم وعُرفوا بهِ

ومن الاقاصيص العامة الشائعة في ذلك ان القيصر بطرس الكبير سأل احد جنودهِ ممَّن أراد مكافأتهم لبأسهم وحسن بلائهم : ماذا تطلب جزاء عن بسالتك أتريد تحفةً ثمينة او كيساً من الذهب او ارزاقاً واسعة ؟ قال الجندي : اني لا اكترث لكل هذه الهدايا هَبني فقط ان اشرب مجَّاناً حاجتي من العرق في كل خمَّارات الدولة . فضحك القيصر واجازهُ . فهذه الرواية تصور بنوع حسي ولوع الروسيين بالمشروبات الكحولية يعتادونها منذ حداثتهم دفعاً لبرد الهواء

ومما يجنيهِ ايضاً عليهم المناخ انهُ يضعفهم ويدّ بنيتهم بما يحوجهم اليهِ من الاحتياطات فانهم اتقاء لنفحات القرّ وصرارة الشتاء يتزورن في بيوتهم ويجعلون لها الابواب الضخمة ويكومون حولها الرماد . وان كانوا اغنياء اتخذوا البيوت الدافئة ذات النوافذ المزدوجة ولهم المستوقدات الواسعة والكوانين ينضدّون حولها في النهار وينامون فوقها في الليل . فينتج عن هذه العادات ما لا يخفى من المضارّ للصحة كقلّة النظافة والوخم واستنشاق الريح الفاسدة المزوجة بالحامض الكربونيك . هذا فضلاً عمَّا يلحق بالآداب من الخرق بهذه العيشة المخالفة للطبيعة . ولذلك قد وصف بعضهم معاش الروس قائلاً : انَّ الحياة في روسية جهادٌ متواصل ضدّ الطبيعة فوق غيرها من البلدان لانَّ العدوّ فيها وهو البرد خصمٌ لا يمكن الفوز بهِ تماماً » . لكنَّ لهذا الجهاد منفعةً ايضاً اذ يتعلّم بهِ الاهلون الصبر وطول الاناة ويتجلّدون على التعب

وهذه المزايا التي ذكرنا تظهر ايضاً في الجنود فانَّ صبرهم على المتاعب وجلَدهم في الحرب لمن الامور المشهورة وانَّما شدَّتهم دفاعيَّة فقط ليس فيهم من التهوُّر ما يُرى في غيرهم من الاوربيين والامر مشهور في كل الجنود الروسية وهو في اهل روسية الشمالية اشهر واوضح . وجنود القرق انفسها لا تعتبر الحرب غالباً الَّا كغزوات يُباح فيها النهب والسلب . اما الفلَّاحون فانهم يحسبون فنّ الحرب كمنتهى الرقّ واقصى العبوديَّة ويأتون من مخاطرها

ومن الاغاني الشائعة بين الجند اغنيَّة يتغنَّون بها في الحرب تدلُّ على ما سبق لنا

قولهُ (١ : « قامت الحرب على ساق . . . ولكن اين يكون منامنا . أننا ناوي في البيداء على الحضيض تحت القبَّة الزرقاء . نرقد في الغابات الكثيفة نضطجع في الاحراج المظلمة نفترش الارض الرطبة ونجعل مهادنا أمنا الثرى ومصدغتنا قطعة من جذور الشجر . وتغتسل بالمطر الجود والقطر المتهاطل ثمَّ نتشَّف بنشَّافة من النبات الغضّ » . وللجنود الروسية غير ذلك من الزجليَّات الدالَّة على كراهيتهم لاهوال الحرب . ولولا طاعتهم العمياء للقيصر وروحهم الديني لمَّا خاضوا غمرات الوغى الَّا مكرهين

ومَّا طُبع عليهِ الروسيّ فضلًا عن جلدهِ وصبرهِ دماثة طبعهِ ومداراتهُ للزمان وتقلُّبهُ مع الاحوال وغضُّهُ النظر عن الأذى . وقد اتى العلَّامة لوروا بوليو بشواهد متعدِّدة على ذلك (ج ١ ص ١٥٣) نذكر منها القصَّة الآتية :

في احدى ثورات اهل پولونية دخل الروس قرية پولونيَّة فنهبوها . ثم احتلَّ احد ضبَّاطهم في بيت امرأة پولونيَّة وجد فيها طفلًا صغيرًا فأخذ يلاطفهُ ويقبِّلهُ . وكانت امّ الطفل حبلى فاغتاظت من فعلهِ واعتدَّت ذلك كشتم فرفعت يدها ولطمتهُ على وجههِ . فليس فقط احتمل الضابط هذه الاهانة بل قدَّم خدَّهُ للمرأة واجاب الى صحبها فخرج من البيت . ثم سمع بعد مدَّة بانَّ المرأة ولدت صبيًّا فارسل هديَّة للصغير كحلوان ليوم عمادهِ

ومن اخلاق اهل تلك البلاد ايضًا انَّ عقلهم متَّجه للعمليَّات اكثر منهُ للنظريَّات فانَّ الروسي يرى في كل شيء غايتهُ القريبة وما ينجم عن فعلهِ من الفوائد

ومنها ايضًا روحهم الدينيّ فانَّ العامَّة منهم مطبوعون على المشاعر التقويَّة وكل من شاهدهم في زيارة الاراضي المقدَّسة تعجَّب من تقواهم وحرارة صلاتهم وتراتيلهم الشجيَّة . غير انَّ هذا الدين تراهُ في الغالب فطريًّا لم يهذِّبهُ التعليم ولم يستند الى درس وفحص . ومن ثمَّ ربَّما غالى الشعب الروسي في الدينيَّات وافرط حتَّى انهُ كثيرًا ما ينسب للارواح والجنّ ما لم يدركهُ عقلهُ القاصر . واذا اختلط الروسي

---

(١) راجع تاريخ روسية لرَمبو (Rambaud : *Russie*, p. 691)

بقبائل سيبريَّة الهمجيَّة ربَّما اخذ عنها عاداتها الوثنيَّة . وقد وجد اصحاب الرحل الى تلك البلاد قومًا كثيرًا من الروس على ضفَّة نهر لنا يشاركون البوذيين وعبدة الاصنام في الدينيَّات . واذا دخلتَ بيت احدهم لقيتَ صورًا وثنيَّة كصورة الاله كولا (Kola) مجاورة لتصاوير القديس نيقولا وغيره من الاولياء .

ومن الآفات اللاحقة بالروسيين انَّ المدارس بينهم قليلة جدًّا فيغلب على الشعب الجهل . وكذلك الاكليروس بينهم فانهُ ليس بكفوٍ لإنذار الأمة لا يسعى في اصلاحها وخصوصًا الفقراء منها . وانهُ لامر معروف انَّ الرُّعاة في روسيَّة ويُدعون پوپًا او پاپاس لم ينالوا للقيام بمهمتهم الاستعداد اللازم وهم منهمكون في شؤون دنياهم يتنظمون في سلك ارباب الدين لمصالحهم الزمنيَّة

والاحصاءات الرسميَّة تجعل عدد اهل روسية مع پولونية وفنلندة والقبشاق ١٠٨,٠٠٠,٠٠٠ منهم ٩٠,٠٠٠,٠٠٠ من الارثدكسيين . على انَّ هذا الاسم يشمل عدَّة احزاب وشيع ليس لها من الارثدكسيَّة غير اسمها ولو أُحصي عدد اصحابها لتجاوز الوف الالوف . نخصُّ منها بالذكر الشيعة الكبيرة الفاشية بين الشعب اعني شيعة الرسكلنيكس التي تبلغ ١٣,٠٠٠,٠٠٠ وهم يُقسمون الى اقسام شتَّى وكأنهم لا يعترفون بالكنيسة الرسميَّة منفصلون عنها

لمَّا طبقات الاهلين العليا من اصحاب الثروة والمراتب السامية فقد تنشَّى بينهم منذ القرن الثامن عشر داء العصر من قلَّة الاكتراث للدين والمبالاة بامور النفس والآخرة . وانَّما يحافظون مع ذلك على ظواهر التديُّن مراعاةً للسلطة المدنية لما بين الدين والسياسة هنالك من العلاقة الشديدة . وكذلك قد انتشرت بينهم عادات السبيريتسم كالموائد الدائرة ومناجاة الارواح وغير ذلك من البدع . ولعلَّ الشرَّ يتفاقم ان لم يتلافاهُ اصحاب الامر

(لهُ بقيَّة)

الكُوَيت

محاضرة الكاتب الفاضل الاب انستاس الكرملي (تابع)

١٠ (صيد اللؤلؤ في الكويت) اعلم ان اعظم تجارة ساحل الكويت بل وجميع الثغور الواقعة على خليج فارس هي تجارة اللآلئ. وهذه متوقفة على استخراج محارهِ (١ من البحرين ويحق لكل انسان من اهل ساحل خليج فارس ان يستخرج الدرّ الّا انهُ لا يتمكّن من ذلك الّا الأغنياء. عربا كانوا او هنادكة (٢ او فرسا فيبتني احدهم لهُ «بوماً» (٣ كبيرًا أو صغيرًا بموجب راس مالهِ ويستأجر لهُ أجراء قبل اوان

---

١) المحار جمع محارة بفتح الميم والحاء المفيفة واهل الكويت وما جاورها من العراق يشدّدونها وهي دابّة تكون بين صدفتين والصدفة نفسها. واهل خليج فارس ولاسيّما الكويتيون يسمّون ما كان منها كبيرًا بالصُدَيفة ويلفظونها «صُدَيغي» وهي صيغة مصغرة يراد بها التكبير. وبالعربيّة الفصيحة الدُرّ وبالفرنسية «paragonnes»

٢) الهندكي غير الهندي. اما ما قال الدرب انهُ لا فرق بين الاثنين فوهمٌ: «الجوهري والساغاني: الهنادكة: الهنود والكاف زائدة على غير قياس» (عن التاج في ه ن د ك) امّا الصحيح فبينهما فرق. قال اليزه ركلو (Elisée Reclus) في كتابهِ عن البلدان المئون باسم: «Nouv. Géog. Universelle. — IX, Asie Antér. p. 71» ما معرّبهُ: «اشهر سكّان الطبقة الوسطى من اهالي افغانستان هم الهنادكة والقزلباش. امّا الهنادكة (وبالفرنسية les Hindki او الهنْدُو les Hindous. فهم جميعًا على الغالب اصحاب بيع وشراء ورهون وفي ايديهم ثغور اشمال الافغان ومناهل اختلاطهم...» وبعبارة أخرى: «الهنود» (les Indiens) سكّان الهند الحقيقية واما «الهنادكة» فهم اجلاف الهنود او اهل «هندستان». قلتُ: والكاف في هندكي للتحقير او التصغير في الفارسية لا للنسبة كما هو مقرّر في كتب نحو هذه اللغة

٣) اليوم وتجمع على أبوام نوع من السُفُن البحريّة في خليج فارس لا تكون الّا شراعية وتكاد تكون محدّدة المؤخّر واما اذا كانت عريضتهُ ومقوّر الوسط فتسمّى «بَنْلة» باسم الحيوان الشهير المتولد من الحمار والفرس. واما اذا كان المؤخر غير مقوّر الوسط فيسمّى «سُنْبكًا» وهو الذي كان يسمّى من القديم سُنْبوقًا او سُنْبوكًا. قال في التاج: السُنْبوق زورق صغير يُعمل في سواحل البحر وهي لغة جميع اهل سواحل بحر اليمن. وقال عن السُنْبوك بالكاف في الآخر: السنبوك السفينة الصغيرة. حكاهُ الزمخشري في الكشاف. وهي لغة الحجاز. ونقلهُ الخفاجي في شفاء الغليل وقال انهُ ليس من الكلام القديم. وحملهُ على الحجاز من سنبك الدابّة». اه. قلتُ: والاصحّ

الصيد باربعة او خمسة أشهر فيتخذ له مثلاً ٣٠ اجيراً مع ناخذاه ويدفع لهم مالاً معلوماً على حسابهم بتزلة عربون ويجري عليه الربا على حساب ٢٠ في المائة او ازيد. فاذا جاء موسم استخراج اللآلئ (وهو من ١٥ نيسان الى ١٥ تشرين الاوّل) ركب التوتية ذلك اليوم مع الناخذاة والتاجر نفسه او وكيله وساروا به الى محل معلوم يُشير به عليهم الناخذاة المذكور. فينزل ستّة منهم في البحر والبقية يكونون في اليوم وبعد ٥٠ او ٦٠ ثانية (وربّما بلغ الغائص الماهر المتمرّن ٨٠ او ٩٠ ثانية) يُخرَجون. واذا خرج الاوّلون نزل الآخرون وهكذا الى آخر الملّاحين. والغائص يبتدئ بهذه المهنة الشاقّة من السنة الثانية عشرة من عمره. وطعام الغوّاص شيء زهيد من التمر مع كسرة من الخبز عند الظهر واماً في العشاء فياكلون ارزّاً مطبوخاً وهو المسمّى « پلاو ». اماً الناخذاة فلا ينزل ابداً وكذلك التاجر او وكيله

وكلّما اخرجوا محاراً ألقوه في بطن اليوم وعند المساء قبل ان يلبسوا ثيابهم ويتناولوا عشاءهم يجتمعون كلهم ويفتحون المحار وهم عُراة خوفاً من ان يخفوا شيئاً وبعد ان يفتحوها يستخرجون منها اللآلئ فيودعونها علبة واماً الصدف فيلقونه في البحر وبعد ان تجمع الدُرر في الصندوق المذكور يُقفَل بمفتاحين الواحد يبقى بيد الناخذاة والآخر بيد التاجر. والملّاحون يفعلون هذا الفعل الى ان تنقضي مدة الموسم. فاذا تمّت يجتمع البحريّون والناخذاة والتاجر واول شيء يفتحون به شغلهم ان التاجر يتقدّم ويأخذ خمس اللؤلؤ أجرةً لبومه. ثم يقسم ما بقي قسمين: النصف الاوّل ياخذه التاجر ايضاً استيفاء لتسليفه اياهم الدراهم. والنصف الثاني يُقسم على الملاحين على الوجه الآتي: ياخذ الناخذاة حصّتين والغوّاص حصّة واحدة والسَنيب (اي الذي يجرُّ الغوّاص من البحر) نصف حصّة

فترى من هذا كلّه ان الغوّاصين لا يربحون شيئاً او يربحون شيئاً لا يُذكر مع

ان اللفظة قديمة في خليج فارس ترتقي الى قبل الاسلام وليست عربية التبجار ولا من الحجاز بل هي تعريب σαμβύκη اليونانية وقد تعلّم العرب بناء هذه السفن من اليونان حينما احتلّوا جزُر هذا الخليج وجزر بحر عمان الخ. والسَنبوك (بفتح السين في الاصل اليوناني كما في اللفظ الحالي العربي) هو نوعٌ من العود (sambuque) وهو ايضاً آلة من آلات الحرب تُتّخذ في الحصار وفي الحروب البحريّة وتُبنى على هيئة هذا العود ومن ذلك اسم السفينة من باب المشابهة

انهم هم الذين يتعبون اكثر من سواهم وربما خسروا واصبحوا مديونين للتاجر مع كدهم هذا الشاق فما هم اذن الا عبارة عن جماعة من الاسرى بل قل من المجرمين يتصرف بهم الاغنياء في تلك الأقطار على ما يشاؤون وكيفما يشاؤون وبقدر ما يشاؤون. واما هم فلا يخسرون الا بعض الاحايين وذلك يكون حينما يُرى المحار الذي يستخرجونه لا يحوي شيئاً او يحوي شيئاً زهيداً. اما اغلبهم فانهم يستغنون بقليل من الزمان ويصبحون اصحاب ثروة طائلة اذا وافقتهم الظروف

اما لؤلؤ جوار الكويت فكثير نفيس الا ان كثرة الحيوانات المفترسة البحرية وتردُّدها اليه تمنع الجميع من الدنوّ منهُ او من النزول في مائهِ واستخراج دُرَرهِ

اما لآلئ خليج فارس فهي دون لآلئ جزيرة سيلان وجزائر يابان في نصاعة بياضها الا انها اضخم من هذه واحسن وانظم منها شكلاً ولهذا يطلق عليها اسم « الدُرّ ». والدرّ بحقيقة معنى اللفظة لا يُوجد في الجزائر المذكورة. ويبقى تالي لآلئ خليج فارس الى ما شاء الله. اما لآلئ سيلان الناصعة فلا تبطئ ان تزول منها ألقتُها ولاسيما في البلاد الحارَّة. واما لآلئ البحرين فيُضرب بها وبحسنها المثلُ وهي شهيرة من قديم الزمان وكثيراً ما تفضّل على اخواتها الخارجة من بطون تلك البحور الغربية. بل وتُفضّل ايضاً على تلك من الجهة الطبيَّة ولهذا فانك ترى كثيراً من السفوفات والمعاجين والاقراص والجوارشنات التي تستحضرها العرب والأعجام في تلك الرُبوع يدخلها مسحوق اللؤلؤ. وشيخ الكويت يُلهَم كل يوم بعد صلاة الفجر وعلى الريق سَفوفاً مركباً من سحيق الياقوت ودقيق الحاكة (١ وقدر هذا السفوف يختلف

---

١) الحاكة بحاء موحدة فوقية ثم الف هاوية وكاف وهاء هي الشِبثُ عند فصحاء العرب وبالفرنسية semences اي حبّ اللؤلؤ او اللؤلؤ الدقيق الحبّ. والحاكة كلمة فارسية من « خاك » اي تُراب او دقيق التراب. واهل خليج فارس من العرب ينطقون بكثير من الالفاظ الفارسية الاصلي لمجاورتهم هؤلاء الاعجام

ويجدر بنا ان نذكر ما جاء في لغة العرب من الالفاظ الدالَّة على اللؤلؤ او ما هو بمعناها او متعلق بها مما يدلُّ على أن العرب قد اهتمّوا باستخراج اللآلئ منذ قديم الزمن. فمن ذلك: الجَرامِس وهو الجمان. والقَمْع وهو اللؤلؤ والصدف. والجُمان وهو اللؤلؤ او هَنوات على اشكال اللؤلؤ تكون من فضّة او خرز بُيّض بناء القضة. والحُصّ وهو اللؤلؤ. والحَضْل وهو اللؤلؤ والدُرُّ الصافي. والحُوض وهو اللؤلؤ. والخريدة وهي اللؤلؤة لم تُثقب. والدرُّ وهو اللؤلؤ

بين الغرام والغرامين بل قد يزيد وينقص حسب حالة صحته . وهكذا يفعل اغلب الاغنياء الذين في ثغور خليج فارس

وصيد اللؤلؤ لم ينقص في الخليج كما نقص في سائر الارجاء التي ينشأ فيها هذا الحيوان الثمين فانهُ يشتغل في هذا الصيد اكثر من ٨٠ ألف رُجل وهم يركبون ما يزيد على ٨,٠٠٠ بُوم. ويبلغ سعر الغاص ١٣,٠٠٠,٠٠٠ فرنك في كل موسم. فيصيب كل واحد ١٥٦ فرنكاً لا غير

اما طريقة الغوص فلم تتغير عن حالتها الاولى فانهم يشدُّون في رِجل الغوَّاص حجرًا ثقيلًا ويشدُّون منخريه بشداد من القرن وأذنيه بشيء من الشمع فيهوي على هذه الصورة البسيطة الى عمق ١٠ امتار او ٢٠ او ٣٠ مترًا. ومن بعد ان يبقى في الماء ٥٠ او ٦٠ دقيقة او غير ذلك على ما ألمنا اليه قبيل هذا يحرِّك الحبل فيصعد الى فوق. ومن بعد ان يستريح يعود الى عمله هذا المحفوف بالاخطار من ٨ الى ١٠ مرَّات وربَّما ١٢ مرَّة. وفي قعر الخليج تكثر الكواسج وسائر الاسماك الفاتكة بحياة الانسان كابي سيف ونحوه. ويبلغ عدد الذين تتلفهم الاسماك ٣٠ في السنة وربَّما زاد هذا القدر في بعض السنين. اما احسن لؤلؤ البحرين وانصعهُ بياضًا فيوجد قريبًا من ينابيع الغَور ويزعم العرب ان المادة التي تكوِّن اللؤلؤ والصدف تأتي من الماء العذب وكلما ازدادت السماء مطرًا غزيرًا استبشروا بصيد وافر

هذا ما يختصّ بالملاحة والنياحة واما التجارة فهي بيد جميع الاغنياء من اهالي الكويت وتكون على الوجه الآتي: اذا حان ميقات موسم التمر اشترى التجَّار كميَّات وافرة من هذا التمر وحملوها على سفن شراعية وذهبوا بها الى الهند فيقايضونها هناك باموال اخرى من انسجة وأثاث وادوات افرنجية ونحو ذلك ثم حملوها على تلك السفن ورجعوا بها الى الكويت فيبيعونها بالدراهم. والذي يفعل ذلك هم التجَّار انفسهم وربَّما اتخذوا لهم وكلاء وهو نادر

واما الصرافة فلا توجد بغير ايدي اليهود. وهم يكسبون من ورائها اموالًا طائلة

الكبير. والمَشْخَلَبة وهي خرز بيض تشابه اللؤلؤ. والشَّذْر وهو اللؤلؤ الصغار. والشَّنْب وهو حبُّ اللؤلؤ. والفريدة وهي الجوهرة النفيسة والدرَّة. والقَضَب وهو الدرُّ الرطب. والمَرْجان وهو معروف ايضًا صغار اللؤلؤ. وغير ذلك من الالفاظ الكثيرة وما هذه الَّا بعض من عدّها

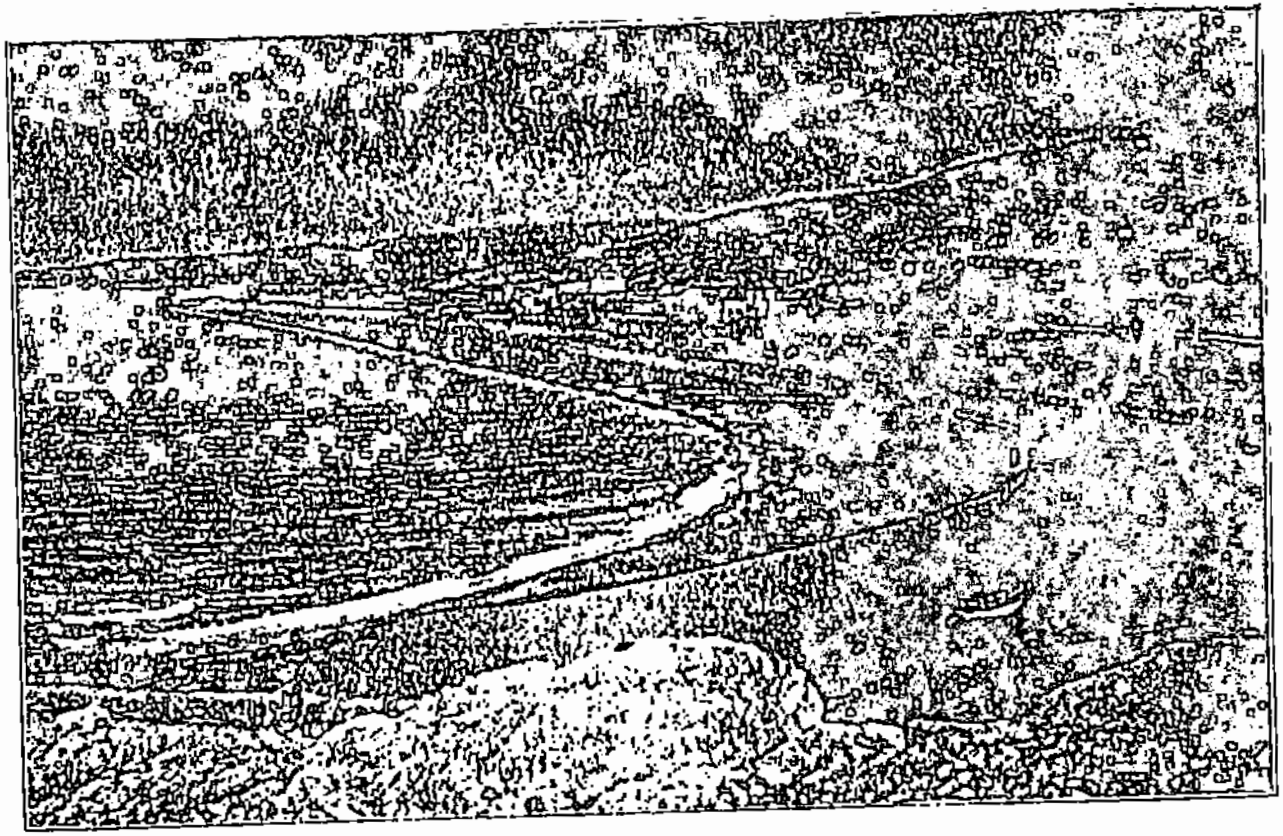

السد عند مصب نهر ابراهيم

تكاد لا تقدَّر. وهم في ذلك يجرون على الصورة الآتية: ان قيمة كل نقدٍ من النقود تتبع اتفاق الصيارفة اليهود. فقد يكون النقد الواحد اليوم في سعر وفي الغد بسعر آخر وذلك انهم ينظرون الى ما يكثر منها فاذا كان بهذه الحالة اهبطوا أسعارها الى ما يوازي ٥٠ سنتيماً من النقود الافرنجية الى ٥٠ سنتيماً تبعاً لنوعية معدنها ونكثرتها وسعرها في ذلك اليوم. فاذا كانت مثلاً من النقود الصغيرة النحاسيَّة او الشَبَهيَّة او الفضيَّة لا يسقطون منها الَّا شيئاً طفيفاً والَّا اسقطوا منها شيئاً معدوداً. وهم في اثناء ذلك يحتكرون ذلك النوع من الورق فاذا قلَّ واصبح الكل بايديهم حسَّنوها علاوةً بالنسبة المذكورة

ولهم طريقة اخرى للانتفاع من الصرافة وهي: ان تجار الكويت كثيراً ما يحتاجون الى حوائل للهند وبلاد ايران وكما انَّهم لا يقبلون الحوائل والقراطيس الماليـة والسفاتج يُجبَرُون على ارسالها نقوداً مضروبة. فاذا عرف اليهود موسم جميع النقود المرغوبة رَقَّوا اسعارها وربَّما دُفع الريال بدلاً من الرُبيَّة اي انهُ يُنزَّل عُشرٌ من سعر الريال وترتفع الرُبيَّة ما يوازي عشرها. وعلى هـذا الوجه يكسب اليهود في حوالة زهيدة المبلغ ربحاً فاحشاً. وشيخ الكويت لا يُقاوم هذا السُخت ولا يُنكل باليهود ابداً. وزد على ما تقدَّم ان صيارفة اليهود يحتكرون في موسم اللؤلؤ جميع الرُبيات لان اسعارها تهبط وقتئذٍ وترتفع بعد انقضائهِ

١١ً (تجارتها) قد ذكرنا اغلب ما يتعلَّق بهذا الفصل في المادة السابقة فبقي علينا ان نذكر التتمة هنا فنقول من صادراتهـا الجصّ فانهُ مشهور في جميع ثغور الخليج وكان يبعث منهُ مقادير وافرة الى المحمَّرة والبصرة الَّا انهُ في اخريات هذه الأيام منعت الدولة الانكليزيَّة اصدارهُ لغاياتٍ في صدرها. ومن تلك الصادرات السمك والشهرهُ الزُبيدي وهو لذيذ فاخر. ومخيَّط النبيّ وغيرهما. ويُبعث من كل ذلك كميَّات عظيمة الى داخل بلاد العرب. ومما يدخل بلب الصادرات الجياد النجديَّة الكريمة الاصيلة فانَّها تُرسل الى الهند على طريق الكويت ويبعث منهـا سنويًا من ٥٠٠ الى ٨٠٠ راس في السنة ويباع الواحد منها من ٥٠٠ الى ٣٠٠٠ روبية (١

(١) ومما يُتَّجر بهِ في داخل الكُوَيت ويُباع بكميَّات عظيمة «الطرانيث» وهي تنبت في تلك الاراضين من نفسها وهي تدخل في اغلب ادويتهم لتقوية معدهم. والطرثوث: نبت يؤكل

ومن اهل الكويت من هم متوسطو الحال والمال فيبيعون ويشترون مع القبائل التي تأتي هذه البلدة افواجاً متموّجة من نجد وداخلية بلاد العرب فيبيعونهم الاطعمة والالبسة اللازمة كالحبوب بانواعها والقطاني باجناسها والأنسجة والاعبية والبُنّ والتبغ ونحوها التي تؤتى من بلاد الهند وايران والعراق. امّا القبائل فتبيعهم حواصل اغنامهم وانعامهم وغزواتهم واغلب الذين يتعاطون بيع ذلك هم اليهود العجميّي الاصل الذين اكثرهم من ابي شهر (بو شير) وقد توطّنوا الكويت من عهدٍ غير عهيدٍ

١٢ً (صناعتها) قد سبقنا فقلنا ان لا صناعة في الكويت ما خلا ما عددناهُ من بعض المهن. الّا انهُ لا يجوز لنا ان نسكت عن صناعة اهلها الوحيدة وهي بناية السفن من الانواع الثلاثة المعروفة هناك وهي: الأبرام والبغال والسنابك. امّا خشبها فيؤتى بهِ من الهند (لهُ تتمّة)

رسم المجاري النهريّة في لبنان.

للاب هنري لامنس اليسوعي مدرس الجغرافية الشرقيّة في المكتب الشرقي

انّ ما سبق وصفهُ عن نهر ابراهيم والسهل المتكوّن عند مصبّهِ يقودنا الى الكلام عن «الانهار العامة» كما سمّاها المؤرخ هيرودوت متلطفاً. ولا مشاحّة فان للمياه الجارية عملاً متضاعفاً فانّها اذا ما اخربت من جانب عمّرت من جانب آخر وما سحتهُ من احد الامكنة نقلتهُ الى محلّ غيرهِ حيث يرسب ويتراكم بقدر ما حفر وجرف في مسيرهِ. وانّما جَرْف الانهار ودمارها اظهرُ للعيان واوقع في القلوب لانّ قسماً كبيراً من الموادّ الراسبة يخفى عن النظر في عمق البحار

والانهار اللبنانية من الانهار العامة فانّها استحقّت هذا الاسم بما واصلتهُ من العمل

وهو رملي طويل مستدق كالقطر يضرب الى الحمرة ويبيس وهو دباغ المعدة. وهو ضربان قثاءُ حلو وهو الاحمر ومنهُ مُرّ وهو الابيض وكلاهما لا ورق لهما (ملخّص من التاج). وقثاءُ يسمّى بالفرنسية cynomorion

منذ قرون متعدّدة. كان البحر في الاجيال الغابرة يبلغ لحف الجبال فيطحها بامواجه المتلاطمة دون ان يتوسّط بينهما شيء من السهول بل لم يفصل بينهما حاجز من الرمل. فان تغيّرت هذه الحال فانّما ذلك من فعل الانهار فهي التي اقتلعت من أعطاف الجبل ومنحدر الاودية تربتها وصخورها فدحرتها الى الخلجان والاغوار البحريّة التي كانت تُرى سابقًا عند لحف الرؤوس الجبليّة الداخلة في البحر فلم تزل تنقلها اليها حتى امتلأ قاعها. وكانت الرياح الغربيّة تهبّ في تلك الاثناء من جهة البحر فتهيج امواجه التي كانت تندفع الى الساحل وهي حاملة موادّ ترابيّة وطينًا من النيل المصريّ ورملًا فتلقي احمالها في مدخل هذه الخلجان فاجتمع عمل الانهار والبحر معًا وتكوّنت بذلك بعد سنات من الاجيال تلك السدود الحدّبة والآكام القليلة الارتفاع التي قامت بعدئذٍ في وجه البحر وردّت صدماته كما ترى في صورة نهر ابراهيم (أنظر الصورة) الذي سبق عنهُ الكلام. ومن درس سهلهُ الذي لا يزال على مرأى منّا يتّسع يومًا بعد يوم ادرك بالنظر ما جرى في سالف الزمان اذ كانت القوى الطبيعيّة مع العوامل الجويّة اشدّ فعلًا منها اليوم. امّا الانهار فجعلت هذه السدود كمجنّ تعمل من ورائهِ عملًا متواصلًا ساحيةً من اعالي الجبال ما امكنها من الصخور والطين والحصى والتربة الزراعيّة مغنيةً بها السهول. فليت شعري أليس هذا عملًا متوازيًا يقوم مقام الخراب والعمران

فعلى هذا المنوال تكوّنت شيئًا فشيئًا تلك المثلّثات الساحليّة التي تُرى عند مصبّ انهارنا والحقول الخصبة التي تمتد على ضفاف الانهار في جوار البحر. وهذا تاريخ السهول والحدائق التي تزين الساحل عند جونيه وصيدا والدامور. والتي في صحنها قامت قديمًا المدن الفينيقيّة العامرة مع ما يُحدق بها من البساتين. وعلى الخصوص ساحل بيروت فانّهُ ثمرة الانهار والسيول التي تجتاز في اوديتهِ كوادي الشويفات ووادي شحرور ونهر الموت ولاسيّما نهر بيروت فانّها كلها اجتمعت فأتت بموادها ووجدت في ضيق موقعها ما يساعدها على العمل. امّا سهل طرابلس فانّهُ لسعتهِ ورحب جوانبهِ كان يقتضي عملةً انشط واقدر تواطأوا على الشغل واحسنوا العمل نخصّ بالذكر وادي بطرّان ونهر ابي علي والنهر البارد ونهر عكّار والنهر الكبير وهو اعظمها. وكذلك الصخور حيث اليوم اسكلة طرابلس المعروفة بالميناء وما حولها من الاراضي فإنّ هي الّا سهل تركّب من مجروفات نهر

قادمًا وصار لاحقًا بالبرّ وانما كان في سالف الدهر جزيرةً منفصلة عن سلسلة الجزُر البحريَّة التي تسدّ اليوم مرفأ البلدة جنوبًا (١

وباجتماع هذه العوامل المائيَّة ومواصلة عملها على مدى الاجيال نشأت هذه الرابية العجيبة المجاورة لطرابلس. ومن اعتبر تركيبها من الصلصال والموادّ الكلسيَّة المنحدرة من الجبل ودقّق النظر في تربتها السوداء اللزجة وما تغلّفه تلك الانحاء من الحبوب مع مزدرعاتها الخصبة من الزيتون والنخل والتوت وقصب السكّر ادرك عظم شأن هذه المدينة وحسن موقعها الاقتصادي كما انهُ لا يتعجّب مما كتبهُ في شانها الكتبة الفرنج في القرون المتوسّطة اذ اعتدّوها كجنّات عدن.

وهي العوامل عينها التي شدّدت ساعدها واحسنت العمل في جوار بيروت. فانَّ هذه المدينة كانت كطرابلس وصور وصيدا جزيرة صخريَّة تقوم فوق المياه وكان البحر العجّاج يبسط ملكهُ فوق البرّ الذي ترى فيهِ اليوم غابة الصنوبر. فلمّا تحدّرت السيول اللبنانية وملأت هذا الغور بما سحتهُ من لبنان وساقت مجاري البحر قسمًا من تربة مصر الى سواحلنا امتلأ البوغاص الذي كان جنوبي غربي المدينة واتّصلت الجزيرة بالبرّ. ولنا شاهد حسيّ على فعل البحر اعني التلّفات الرمليَّة التي جاءتنا من القارة الافريقيَّة فنقلت على قول الشاعر لامرتين « الى لبنان قطعةً من صحراء مصر »

وهذه الظواهر الطبيعيَّة انما هي نواميس مقرَّرة استلفت اليها الانظار ارباب وصف البلدان منذ زمن مديد. وليس ما حدث في سواحلنا الفينيقيَّة سوى مثال مصغَّر لما حدث في الاصقاع المصريَّة. فانَّ مصر السُفلى اي المثلَّث العظيم المعروف بالدلتا لم يكن في عالم الوجود في غابر الايام اذ كان بحرنا المتوسّط يمدّ مياههُ وسيطرتهُ على الساقل تلك البلاد الى سفح جبل المقطم حيث شيّدت بعدئذٍ القاهرة

ولنا في تركيب شطّ العرب مثال آخر أقرب عهدًا الى ازمنتنا التاريخية. فان العلماء

---

١) راجع وصف لبنان لديغر Diener: *Libanon*, p. 110 ثم مقالة الاستاذ هول Ed. Hull في المجلّة الفلسطينيَّة الانكليزيَّة (PEF, 1885, p. 175) راجع ايضًا Memoir of the physical Geology of Palestine, p. 75 وكتاب ه. بروتس H. Prutz : *Aus Phœnizien*, IX

بالآثار الاشورية يتفقون على انّ اجتماع النهرين دجلة والفرات عند شط العرب انّما هو حدث جرى على الأقلّ بعد الطور الاوّل من تاريخ بابل وانّ النهرين كان يصبّان في بحر العجم كلٌّ بمفرده لكن مياههما لم تزل تنقل الرواسب التي تراكمت فمالت بسيرهما الى أن التقيا في المسير وجريا في مسيل واحد قبل ان ينصبّا في البحر (١ . وحتى اليوم اذا نظرت الى الطين المنقول بمياههما تحقّقت انّ ساحلهما يزداد كل ٣٠ سنة اتساعاً بعد ثلاثة ارباع القرن . وقد ذكر السيزاي روكلو (الارض ج ١ ص ٤٧٧) خلجاناً من الماء المالح صارت بعد مدّة لا تتجاوز حياة الانسان سهلاً وكذلك مسايل كان ينبت فيه الطرفاء اضحت غابات فنواء.

أجل انّ سيول لبنان لا تشبه الّا عن البعد انهار افريقية وما بين النهرين الّا انّ عملها ايضاً على قدر قوّتها اعني سهولاً قليلة الاتساع بالنسبة الى وادي النيل وسهول بلاد العراق (٢ . لكنّ العوامل واحدة والعمل الواحد مع اختلاف سعته وعظمه بحيث يمكننا تكرار ما سبق قوله بان لبنان افاد سوريّة كما افاد النيل ارض مصر .

ولذلك ترى كتبة الاسفار المقدّسة اذا ذكروا لبنان اطلق لسانهم على مدحه. قال ريتر (٣ : انّ بلاد فلسطين كلها تشخص بالنظر الى مشارف لبنان وحرمون المكلّلة بالثلوج الغرّاء لانّ منهما تأتيها البركة والخصب واذا سمعت الفلاح كما الراعي والقوّال كما النبيّ والمعلم كما الشاعر رأيتهم جميعاً يستعيرون من هذه الجبال المباركة ابدع ما لديهم من التشابيه واجمل ما عندهم من الرموز »

*

وقبل ختامنا هذا الفصل في انهار لبنان لا بُدّ ان نبيّن بوجيز الكلام ما لبعضها من الخواصّ بصفة حدود المعاملات والايالات . فانّ منها وهو النادر ما يكون كثير المياه طويل المجرى كالنهر الكبير الذي يحدّ فينيقية ويفصلها عن سوريّة بمناها الحصري

---

١) وهو امر تنبّه لهُ قديماً بلينيوس الطبيعيّ (ك ٦ ف ٣١)

٢) راجع ايضاً ما كتبهُ العلّامة كلرمون غانو عن تقدّم نهر الاردن الى الجنوب واتساع مصبّه في بحيرة لوط (RAO, V, 277-280)

٣) Erdkunde, XV, 16

اعني بين سورية جالسة مصر وسورية السارقين (١ ومثلهُ الليطاني الذي يحدُّ شمالًا بلاد فلسطين ونواحي صور وصيدا.

ولكن أغلب الانهار اللبنانية التي تحدّ المعاملات انّما هي مجارٍ قليلة المياه وتجري في اودية عميقة تنتهي عند البحر بمضيق او رأس يقوم مقام القلعة. واحسن مثال على ذلك نهر الكلب فانّهُ لم يكن حريًا بان يُجعل من الحدود لقصر مجراه وقلّة عرضه الّا انّ مصبّهُ عند رأس تُدافع عنهُ بسهولة شرذمةٌ من الجند وتردّ جيشًا عرمرمًا جعلت لهُ خطرًا عظيمًا في كل الازمنة. وقد كان هذا النهر على عهد الفينيقيين حدًّا لاملاك بيروت في الشمال كما كان الدامور جنوبًا يفصلها عن املاك صيدا. (٢. واليوم ايضًا نهر الكلب من حدود لبنان يفصل قائمقامية المتن عن كسروان. وقد كان على عهد رعمسيس الثاني فاصلًا بين املاك المصريين في الشام واملاك الحثّيين. والنصب الذي اقامهُ هذا الملك عند نهر الكلب انّما هو ذكرٌ ودليل معًا على حدود دولته (٣

ويوجد مجرًى آخر اصغر من الانهار السابقة. مسيلًا واقلّ شأنًا نزيد جدول المعاملتين الذي اتّخذهُ القدماء ايضًا كاحد حدود البلاد. وفي عهد الفرنج كان الفاصل بين ايالة اورشليم وايالة طرابلس (٤ والسبب انّ ضفّتهُ الشمالية عند رأس حرج ضيّق الحاز لم يكن السير فيه الّا بنقر الصخور لجواز الطريق الساحليّة. وهناك اليوم برجٌ قديم يدلّ على انهُ كان مقامًا للجند. وشماليّ هذا الجدول تبتدئ بلاد طرابلس امّا جنوبهُ فيلحق ببيروت او بصيدا. على حسب تقلّبات الدهر اذ ينتقل مركز الولاية الى بيروت او الى صيدا. ومن هذا اشتقّت اسمها المعاملتين الذي هو قديم في التاريخ كما يشهد على ذلك الكتبة العرب والرحّالون (٥

---

١) اطلب بتشان وهولشر. Pietschmann, *l. c.* 40 ; Hoelscher: *Palæstina in der persischen und hellen. Zeit*, p. 8

٢) وكذا كان على عهد الصليبيين يفصل الدامور ولاية بيروت عن ولاية صيدا (راجع راي Rey: *Colonies franques*, 509

٣) W. M. Müller : *Asien u. Europa*, 222 ; Schrader - Winckler *Keilin-schriften*, 184

٤) راجع المجلة الاسيوية (١٩٠٣ ج ١ ص ٢٤٧)

٥) راجع اخبار الاعيان (ص ١٨)

ولنا هنا ملاحظة أخرى وهو انك لا ترى على ضفّة الانهار اللبنانية لا مدينة ولا قرية مهمّة (ZDPV, XXVII, ١١٤) مثال ذلك حواضر فينيقية كصور وصيداء وبيروت وجبيل والبترون فكان حقيقاً بها ألّا تبعد عن هذه الانهار. ولعلّ السبب في ذلك ان في جوار هذه الانهار وعند مصبها تكثر الامراض الوبيئة والحمّيات ويفسد الهواء. ثم انّ الفينيقيين كانوا تجاراً لا يعتنون بالفلاحة والزراعة ومن ثم لم يختاروا لمدنهم السهول ومجاورة الانهار بل كانوا يفضلون الرؤوس الداخلة في البحر والخلجان التي تصلح لمرافئ سفنهم حيث يسهل عليهم في حصونهم البحريّة ردّ هجمات العدوّ وركوب البحر وتأمن سفنهم من الرياح وتراكم الرمل ويسهل وسقها بالبضائع. وكلّ ذلك اوفى بالمرام عند الرؤوس الصخريّة. وما يدلّ على أنهم احسنوا اختيار مواقع هذه المدن أنها لا تزال في مراكزها القديمة مع ما طرأ عليها من التقلّبات العديدة وصروف الدهر. بل ترى بعضها تتقدّم كل يوم في معارج الفلاح

مجموعة السنهادوسات الكلدانيّة

بقلم حضرة الاب الفاضل الخوري بطرس عزيز نائب بطريرك الكلدان في حلب

نشر العالم المستشرق الخوري يوحنّا شابو لاول مرّة كتاباً ذا اهمية عظمى في تاريخ الأمّة الكلدانية وهو مجموعة سنهادوسات اي مجامع قديمة (١ كانت ولم تزل عند النساطرة دستور العمل ومحور التهذيبات الكنسية فاحببنا ان نعرّف بها قرّاء المشرق الأنور

لم يكن هذا الكتاب معروفاً في اوربّة الّا من نفر قليلة استشهد بها كتبة النساطرة في تآليفهم لاسيّما عبد يشوع الصوباوي. وكان السماعنة لخّصوا منهُ بعض القوانين استناداً الى ترجمات عربية لهذه المجامع حتى اتى به الطيّب الذكر المطران يوسف داود في جملة الستة والاربعين مخطوطاً التي استنسخها في الموصل سنة ١٨٦٩ المتحف البوردجياني الذي انتقل اليوم الى المكتبة الواتيكانية. فلمّا عرف المستشرق شابو ان الاصل محفوظ في دير ربان هرمز للكلدان استجاب من هناك نسخة أخرى للمكتبة

1) Synodicon Orientale ou Recueil de Synodes Nestoriens, publié traduit et annoté par I-B. Chabot. *Paris, Imprimerie Nationale.*

الباريسية وامكنه بذلك ان ينشر المتن مضبوطاً. وقسم كتابه الى ثلاثة اقسام: الاول يحتوي على النص الكلداني لاعمال هذه المجامع ويتضمن الثاني ترجمته الفرنساوية مع حواشي تاريخية ولغوية وافرة ومقابلات بين النسخ التي لديه. وفي الثالث حشد بقلة ملحق عدة آثار تاريخية لها نسبة الى تلك المجامع وختمهُ باربعة فهارس. امَّا هذه المجموعة فتحتوي على اعمال ثلاثة عشر سنهادوساً تستغرق من سنة ٤١٠ للمسيح الى سنة ٧٧٥. والثلاثة الاولى منها عُقدت قبل النسطرة والباقي في النسطرة. وكان السيد الذكر البطريرك عبد يشوع خياط قد ذهب الى ان جامع هذه السنهادوسات هو البطريرك ايليا الاوَّل النسطوري (سنة ١٠٤٩) الَّا ان الاب شابو مع غيره من العلماء فنَّدوا هذا الراي ببراهين قاطعة واثبتوا ان مجموعتنا هي اقدم من ذلك باكثر من جيلين ولا يُعرف اسم مؤلفها

والفوائد التي يمكن التاريخ ان يجتنيها من الكتاب كثيرة اخصُّها اولاً الوقوف على تقلبات وتغييرات التعاليم النسطوريَّة في تادي الزمان وهذا يُعرف من فحص صور الايمان المدوَّنة في صدر اكثر هذه المجامع. ثانياً يُستدل منها على تاريخ بطاركة النساطرة بالضبط وتتصحح بها عدَّة امور نعرفها من تواريخ اخرى. ثالثاً يُستفاد من جداول المطارين العديدة التي فيها جملة اعلامات مهمَّة لتاريخ الكنيسة الشرقيَّة. ولكي يتاكد القارئ ذلك عزمنا ان نلخص في هذه المقالة اعمال المجامع الثلاثة الكاثوليكية تاركين ما يختص بالمجامع النسطوريَّة الى مقالة أُخرى ان شاء الله تعالى

﴿ المجمع الاوَّل ﴾ التأم المجمع الاول بتحريض ماروثا اسقف ميافارقين عندما أُرسل سفيرًا للمرَّة الثانية من لدن ملك الروم الى ملك الفرس. وقبلت فيه قوانين المجمع النيقاوي وترتبت بعض الشؤون الكنسية وتعيَّنت لكل اسقف ابرشيتهُ وأُزيل الشغب الذي كان بين الجاثليق وبعض من اساقفته وها نحن ذا نورد مقدَّمات المجمع بالاختصار:

« في السنة الحادية عشرة لملك يزدجرد (٤١٠م) بعد ان استتبت الراحة في كنائس الرب وبطل الاضطهاد وابرز الملك امرهُ بان تُبنى المعابد ويُطلق سبيل المسجونين من اجل الايمان وتعطى الحريَّة للاكليروس (في رئاسة مار اسحق اسقف ساوقية وقطيسفون جاثاليق المشرق) بواسطة السفير بشير السلام الذي ارسلهُ الله اي الاب

الحكيم مار ماروثا اسقف ميافارقين الذي وطد كنائس المسيح واجتهد بان تذاع في الشرق ايضاً القوانين المقررة في بلاد المغرب لبنيان شعب الله . وبسعي الرؤساء الآباء اساقفة الناحية الرومانية برفيريوس بطريرك انطاكية وأقاق اسقف حلب وفاقيدا اسقف الرها واوسابيوس اسقف تلّا واقاق اسقف آمد وجميع مستأهلي الذكر الصالح امام الله في كنائسنا الذين مع بعدهم عنّا بالجسد قد ابانوا محبتهم وغيرتهم نحونا برسالة بعثوا بها الى مار ماروثا طالبين منهُ تحت قسم ان تُتلى على مسامع الملك . فلمّا قرئت قال الملك : « ان المشرق والمغرب هما مملكة واحدة في عهدي » . واوعز الى مرازبة مملكتهِ ان يبعثوا الاساقفة من كل ناحية ليأتوا ويجتمعوا ويبطلوا الانشقاق والانقسام ويرتبوا ما يؤول الى حسن تدبير الكنيسة الجامعة لكي يقبل اخوتهم اساقفة الفرس والاماكن الاقصى موقناً التحديدات البارزة في حقهم من حكم هؤلاء الاساقفة

« فلمّا وصل آباء المجمع الى المدائن قرئت الرسالة على مسامعهم بامر الملك وهذا نحواها : (اوّلاً) ان لا يكون في مدينة واحدة اكثر من اسقف واحد ولا يُرسم الاسقف الّا من ثلاثة اساقفة . (ثانياً) ان نعيّد الميلاد والغطاس بالاتفاق ونصوم معاً الصوم الاربعيني ونحتفل بعيد الفصح المقدّس ويوم الصلب العظيم ويوم القيامة ونقرّب لله في كنائسنا ذبيحة جسد ودم المسيح لتقديس احيائنا وقيامة اموانتا . (ثالثاً) اذا شاء ربّنا وسمع دعاءنا وصدر الامر الملوكي باجتماع الاساقفة نرسل لكم القوانين المثبتة في مجمع الثلثماية والثمانية عشر المقام في نيقية »

ثم قرئت هذه القوانين في المجمع فقال اسحق : « من لا يقبل هذه الشرائع فليكن محروماً » . وكرّر قولهُ الاساقفة جميعاً ثم اوردوا صورة ايمان نيقية بالحرف . ووضعوا واحداً وعشرين قانوناً تختص بالتهذيبات الكنسية تشاهد الاساقفة على حفظها وكان عددهم اربعين ولكن في آخر اعمال المجمع لا يوجد الّا توقيع ثمانية وثلاثين اسقفاً

﴿ المجمع الثاني ﴾ في السنة الحادية والعشرين ليزدجرد ملك الملوك (سنة ٤٢٠ م) في رئاسة مار يابالاها جاثليق المشرق في السنة الخامسة لحبريته لمّا أرسل مار اقاق اسقف آمد سفيراً من لدن ملك الروم (ثاودوسيوس الصغير) الى ملك الملوك محبّ السلام لاجل راحة الكنائس المسيحية في المشرق لكي يقابل بمجيئه سفارة ابينا مار يابالاها الجاثليق الذي كان ارسلهُ ملك الملوك باكرام وابهة الى ملك الروم لاجل

صبح هاتين المسكونيين بما كان هذان الأبوان مجتمعين عند ملك في مدينة بيت اردبشير نحن اساقفة جميع انواحي المشرقية اجتمعنا لكرامة ابينا المحترم بابالاها وافتقد احاه مار اقاق وقدمت لابوته ومار اقاق هذا العرض: من حيث ان ابوتك صعدت سفيرا الى الغرب واشتركت في قدسيات الكنيسة الكاثوليكية مع احبار تلك البلاد ومن حيث ان اخاك مار قاق نزل الينا سفيرا وهو في كمال الاتفاق معك ومنا في كل ما يختص بالترتيب الكهنوتي فمن اللائق بنا ان نؤيد بتوقيعنا المراسيم المحيدة الموضوعة من تلاميذ الرسل آبائنا لاجل تيادة الكهنوت وكذلك الشرائع الرهبنة والقوانين المسنونة في مجامع الاساقفة في ارض نختفة في المغرب وهي المجمع النيقاوي ومجمع انقرة غلاطية وقيصرية جديدة وعغرا ومجمع انطاكية في تقديس بيعة ومجمع اللاذقية في قريحية. وبعد ان يثبر ضرورة هذه الشرائع لحسن تدبير الكنيسة وابطال المنازعات قرروا ان يطلب اذن من قسطنطين ان تعطي لكل منا القوانين التي سنّتها اساقفة الناحية الرومانية المحفوظة هناك بتدقيق لكي نحفظها نحن ايضا ونهذّ بها نهارا وليلا ونتفق في اتباعهم الواحد المأخوذ عن الرسل وتدبر بشرائعهم ولا يبقى بيننا وبينهم فرق البتة

فاجابهم بابالاها بان هذه كانت نيّة منذ يوم تبرأ الرئاسة فاعطى لكل منهم هذه القوانين وحثّهم على العمل بموجبها ورشق بالحرم كل من لا يتبعها ثم قال: «وما هي هذه الشرائع المسنونة من الآباء. انما هي جميع القوانين المنحصرة في مرسوم واحد في عهد اسحق الجاثليق وكانت قد سُنّت وقتئذ لتلك الظروف ومع ان الظروف تتغير مع الزمان والشرائع مع المشترعين يلزم المحافظة على هذه السنن القديمة التي في وقتها ردعت الجسورين». وهكذا قرّ رأيهم بالاتفاق مع اقاق وختم الاساقفة قائلين: «نحن بحضور بابالاها الجاثليق واقاق الاسقف والسفير قد وقعنا على كل هذه الاشياء التي اتفقنا عليها فليكن عند كل واحد منّا نسخة من هذه القوانين ليعمل بموجبها ومن قاوم منا او من الآتين بعدنا هذه المراسيم يُعدّ غريباً عن خدمة المسيح». وفي آخر الاعمال توقيع اثني عشر اسقفاً

﴿ المجمع الثالث ﴾ التأم لاعادة الجاثليق داد يشوع الى الرئاسة بعد ان كان قد استقال عنها مدّة من اجل سوء المعاملة التي لقيها من بعض اساقفته

في السنة الرابعة لملك وهران (٤٢٩) بحضور داد يشوع الجاثليق اجتمع في

مركبة العرب الاساقفة (وهنا اسماء ٣٦ اسقفاً) وقدموا الى الجاثليق عرضاً يطلبون فيه منهُ ان يرجع فيستلم زمام الكنيسة المشرقية قائلين: « ان الآباء والقديسين والشهداء متفقون على الاقرار بالحقوق البطريركية المعطاة لهذا الكرسي المقدَّس كرسي كنيسة كوخي وانت ايها الاب قد وُضعتَ على هذا الكرسي اباً ومديراً لجميع الكنائس المسيحية في المشرق ومن كرسيك امتدت الرئاسة الى جميع الكراسي الاسقفية ليس فقط في هذه المملكة بل الى ما ابعد منها ايضاً ولا تقدر القوات العالمية ان توقف سيرها »

فاجاب داد يشوع متشكياً من الاساقفة المضادين الذي حُرموا وأُزيلوا عن كراسيهم في عهد اسحق وبابالاها سالفيه وقد فارق بعضهم هذا العالم وبعضهم حاضرون وهم مع ذلك مصرّون على عنادهم باستمرارهم في الرئاسة وقد اوقعوا بالكنيسة اضراراً جسيمة بالتجائهم الى حماية الوثنيين وأقاموا ضمائر البسطاء مدَّعين انهم حُرموا ظلماً فلا يخضعون لهذه التاديبات . الى ان قال: « وانا ردعاً لخبثهم هذا قد كتبتُ صورة الحكم البارز عليهم وارسلتهُ الى بلادهم فهاجوا من جراء ذلك ورفضوا الحكم واشاعوا بطلان حقوقي وشنَّعوا عليَّ ونسبوا اليَّ عبادة النار والسيمونية وعدم الاهلية والجهل وكان من هذه الشكايات انَّ الوثنيين ثاروا على النصارى وصدَّقهم البسطاء وتحزبوا لهم ضدي . وفي السنة الماضية قدموا عليَّ امام الخلفاء شكايات قويَّة ولم اجد معزّياً ولا محامياً في الاوجاع التي داهمتني من جرّائهما بين القيود والعذابات وبذلك اشتدَّ الاضطهاد واضحى المجوس اقدر على هدم الكنائس والاديرة وكثيرون جحدوا الايمان والبعض استشهدوا والاغلب هربوا واختفوا . اما اولئك المساندون فلم يزدادوا الَّا خبثاً وهم لا يريدون عليهم بطريركاً يردعهم عن مقاصدهم السيئة . . . قد سمعتم كيف نجوت كالطير من فخ الصياد والآن لماذا تتعبون ايضاً نفسي الكئيبة لِمَا قاست من اصناف المصائب . . قد تكبَّدت لاجل شرفكم احزاناً تفوق الحد فاتركوني ودموعي على خراب الكنيسة وتدمير اولادها وفقدهم » . قال هذا والدموع تهطل من عينيه وبكى معهُ جميع الاساقفة

فقام اغابيت اسقف بيت لاقاط وطلب ان يُسمح لهُ بالكلام وان يقرأ الرسائل القانونية الواردة من آباء المغرب الى آبائنا المشرقيين من قديم الزمان وموخراً في عهد ماروثا وبابالاها وذكر القلاقل التي اسفرت عن احداث الاضطهادات في الكنائس واخص

اسبابها الاساقفة المتمردون الذين ردعهم مار فافا الجاثليق بوقته واحتمل منهم ما احتمل الّا ان الآباء الغربيين انتصروا له وأنصفوه حقه . ثم استوثقت القلاقل على زمن الجاثليق اسحق من الاساقفة العقوقين وهو ايضاً كابد منهم عذابات فادحة حتى السجن الى ان رجع النظام في الكنيسة ببيعة الاباء الغربيين بواسطة ماروثا الذي سعى بعقد مجمع حرم فيه المردة وكذلك الامر في زمان يابالاها حتى وصل الخبر الى آباء المغرب فحسموا الشقاق ورجع السلام . الى ان قال : « وانتم ايها الآباء تعلمون انهُ كلما حدث عندنا اضطراب كان الآباء الغربيون عضداً لهذه الرئاسة وهكذا خلصونا من الاضطهادات الثائرة على اجدادنا من المجوس بواسطة السفراء الذين كانوا يمثلون بهم المرة بعد المرة . امّا الآن فمن حيث الظروف لا تسمح لهم بذلك علينا نحن ان نداوي جراحنا ونفدي بانفسنا ابانا داد يشوع القائم لنا مقام بطرس فلنتوسل اليهِ بكل ما يمكننا من علامات التذلل ان يرجع الى الرئاسة »

ثم انهم بمشورة هرمز اسقف نصيبين قاموا كلهم واطرحوا على اقدام داد يشوع ورفعوا اصواتهم بالبكاء مسترحمين منهُ ان يتجاوز عن تقصيراتهم في حقه وان يقبل طلبتهم ويرجع الى رئاسته وان يحرم الاساقفة المتمردين ووعدوا انهم يقبلون ما حدده الآباء الغربيون بان لا يحاكم الرأس من المرؤوسين الذين تحتهُ وان لا يجمع الاساقفة مجمعاً ضد رئيسهم بل اذا اقتضى الامر ولم يقنعوا بحكم البطريرك ترفع الدعوى الى اقرانه ومن حيث عُلم بالاختبار ان الذين تشكوا من الجاثليق كانوا مذنبين ونالهم القصاص فلهذا الآن نحدد بكلمة الله ان لا يقدم الشرقيون شكاية على بطريركهم قدام الغربيين وان كلَّ ما لا يمكن اصلاحه قدام هذا يحفظ لمنبر المسيح(١) . ثم زاد الاساقفة قائلين : « حيٌّ هو الرب وحيٌّ هو اقنومك ايها الاب ان ايادينا لا تترك ارجلك ولا نقوم من الارض حتى تتصالح معنا ومع الكنيسة »

فاجاب داد يشوع : « ناشدتكم الله لا تريدوا احزاناً على احزاني باستمراركم منطرحين على الحضيض . انهضوا فاصنع بما اردتم » . ثم انهُ غفر للمذنبين عن جهل وشجب المعتدين وقام الاساقفة ووقّعوا على اعمال المجمع

---

(١) في هذا نظر لانَّ للاساقفة حقاً ان يرفعوا دعواهم الى نائب المسيح فيحكم بينهم وبين بطريركهم حكماً فصلاً (المشرق)

اتّقاء الامراض الوبائيّة

نبذة للأب بطرس دي فراجيل اليسوعي مدرّس الطبيعيات في مكتبنا الطبي

قد استرسلت المجلّات العلميـة في ذكر المؤتمر الطبيّ الدوليّ الحادي عشر الذي عُقد في بروكسل في العشر الاوّل من ايلول وما نجم عن ابحاثه من النتائج الحسنة. وقد كان اصحابهُ تعاهدوا بالنظر في اخصّ المباحث التي تهمّ صحّة الجمهور وعافيـة الافراد. ولذلك كانت انظار القوم شاخصةً اليهِ وهم يبنون اطيب الآمال على هذه الخابرات لعلّهم يطّلعون على ذرائع جديدة لحفظ الصحّة ودفع المضارّ اللاحقة بها في عصر تمدّننا الحديث

والحقّ يقال انّ علماء هذا المؤتمر لم يخيّبوا رجاء المؤمّلين وكانوا قسموا أشغالهم الى سبعة اقسام افردوا القسم الاوّل منها للجراثيم والميكروبات والحلّيات والتقاعيّات وما لها من العلاقة بالصحّة. وممّا دار عليهِ الكلام بينهم خصوصاً خمسة ابحاث مرجعها الى المعالجة بالمصل (sérothérapie) ودفع مرض لا يزال كلّ يوم يزداد تفاقماً واستشراء اعني داء السل. ولمّا جعل هذا الداء يفتك في ظهراني بلادنا رأينا ان نذكر لقرّائنا ما اتصل اليهِ العلم الحديث لاتّقاء عواديهِ وبما ذكرهُ اهل المؤتمر في هذا الشأن

وايثاراً بالوضوح نلخّص هنا ما حاولنا بشرحهُ في اثناء الكلام مقسمين ذلك الى اربعة اقسام. ففي القسم الاوّل نُجمل الكلام عن الميكروب والجراثيم الوبائية (١ والوقاية منها. ثم نبحث في القسم الثاني عن قوّة الانسان الغريزيّة لردّ العدوى واتّقاء الادواء. ثم في قسم ثالث نفصّل الكلام عن الوقاية المكتسبة امّا بالتطعيم (inoculation) على اختلاف انواعهِ واما بالحقن (injection) سواء كان بموادّ ميكروبيّة محلّلة او بالمصل

١) لهذه الجراثيم المعدية اسمان شائعان بين العلماء احدهما وضعهُ سنة ١٨٧٢ كوهن Cohn وهو اسم البكتيريا (Bactéries) والثاني اشاعهُ سيديلو سنة ١٨٧٨ وهو الميكروب. وهذا الاسم يعمّ كل الجراثيم الآلية الصغيرة كالاختمارات والمقنيات. واسم البكتيريا اصلح للآليات النباتيّة الصغيرة التي عليها مدار كلامنا هنا

ونختم اخيراً بالكلام عن تشخيص الادواء المالجة بالتطعيم والادواء المعالجة بالمصل

١ كلام اجمالي في الجراثيم الالية المحدثة

اعلم انَّ آخر ما تنتحلُ اليهِ كل مخلوقات عالمنا الحيَّة من النبات والحيوان انما هو عنصر اساسي يدعونهُ الخليَّة (cellule). والخليَّة تتركَّب اوَّلاً من جُلَيْدة تحدُّها ثمَّ من مادَّة عنصريَّة اصليَّة (protoplasma) يدخلها مركَّب من الهدروجين والاكسيجين والازوت ثمَّ آخراً من نواة او نوًى داخليَّة لها فعلٌ في حياة الخليَّة. ومن خواص الخليَّة الحيَّة انها تحيل الى نفسها الموادَّ اللازمة لوجودها وان تولد شبيهاً بها. والموجودات الحيَّة يمكنها ان تقوم بخليَّة واحدة (unicellulaires) او تقوم بمجموع من الخلايا (pluricellulaires). وفي المواليد الطبيعيَّة النباتيَّة والحيوانيَّة امثلة من النباتات او الحيوانات الكثيرة الخلايا كالانسان والفرس واصناف الشجر ومنها ما ليس فيهِ الَّا خليَّة واحدة كخيَّيرينات مجهريَّة يدعونها بروتوزوار (protozoaires) ونباتات طحلبيَّة مختلفة

وهذه النباتات الَّا القطر منها تحتوي في اوراقها مادَّة ذات لون اخضر تُدعى كلوروفيلاً لها عمل جليل في حياة النبات. فانها هي التي تستحضر قسماً من المائيَّة اللازمة لغذائهِ. الَّا انَّ في بعض اصناف القطر ذات الخلايا المفردة ليس اثر لهذه المادَّة الملوِّنة وهي التي دُعيت باسم باكتريا او ميكروب. والكلام هنا مقصور عليها فان درس خواصها وطبائعها قد اضحى علماً قائماً بذاتهِ دُعي لذلك باكتريولوجية او ميكروبيولوجية ومع انهُ علم حديث النشأة تراهُ يتَّسع يوماً بعد يوم حتى صار لهُ من الشان والخطر ما لا يخفى. بيد انَّ درسهُ يقتضي نظراً دقيقاً لئلَّا يفضي بصاحبهِ الى الوهم والضلال وذلك انَّ حدودهُ حتى الآن ليست بواضحة مقرَّرة فلا يُستطاع بيان الفرق الفاصل بين جنس وآخر كما تُفصل الاجناس العليا بل ربَّما رأيت جنسين متشابهين بالهيئة والخواصّ يبقى الناظر اليهما في ريب عن خواصهما. ويزيد هذا المشكل عضلاً أنَّ الجنس الواحد من الميكروبات يختلف بصورتهِ وخواصهِ المميِّزة لهُ الَّا في حالهِ القانونيَّة

هذا وقد لحظ العلماء انَّ بعض هذه الجراثيم الاليَّة يطرأ عليها طوارئ ثابتة مختلفة عن حالتها الاصليَّة فكان ذلك داعياً للبحث عن إمكان استحالة بعض هذه الميكروبات

الى بعض وقتًا لبدإ تحوّل الاجناس. الا انَّ الجواب الراجح بينهم حتى الآن انَّ هذه الاستحالة لا اصل لها ولا سندًا علميًا

والمكروبات على ثلاثة ضروب: (الاوّل) ما كان منها مستديرًا يدعونها كوكُوس (coccus) اي حُبَيْبَة وهو يُقسم اقسامًا كالمكروكوكُوس (micrococcus) اي الذُرَيْرَة والستربتوكوكُوس (streptococcus) اي السُبَيْحَة وهي على هيئة سلاسل مستطيلة. والستافيلوكوكُوس (staphylococcus) اي العُنَيْقيد لوجودها على شكل العُنقود. (والثاني) ما كان على شكل عُصيَّات ويُدعى لذلك باشلُوس (bacillus). والفرق بينهُ والبكتريوم انَّ الباشلُوس اطول واسطواني الشكل امَّا البكتريوم فبيضوي الشكل غاية في القصر. (والثالث) لولبيّ الشكل يُدعى لذلك سبيرلوم (spirillum) ومنهُ صنف يُدعى ڤبريو (vibrio) وهو على شكل الضمّة العربية

ولهذه الاقسام عينها اجناس وانواع يُستدلّ عليها باسم الجنس مع اضافة النوع او الخاصّة المميّزة فيقولون الباشلوس الكتابي (bacille tuberculeux) لباشلوس السلّ وهلمَّ جرًا

والمكروبات على اختلاف اصنافها لا يضبُطها احصاء. واذا وجدت في وسطٍ موافق لانتشارها نمت نموًّا غريبًا بغاية السرعة. ومن فحص الهواء والارض والماء وجسم الانسان والحيوان وجد منها الوف الالوف. الَّا انَّها والحمد لله ليست كلُّها مضرَّة. وما كان منها كفوًّا لنقل العدوى في البشر والبهائم يُدعى مكروبًا وبائيًا (microbes pathogènes) واليوم قد ثبت بالاختبار انَّها تسبّب امراضًا كالدفتيريا والكزاز (tétanos) والسلّ والحمّى الملاريّة الخ

وهذه الجراثيم الآلية المُعدية تفرز موادّ قابلة التحليل ذات قوَّة سامَّة يدعونها توكسين (toxine) واذا نُفث الحيوان بهذه المفرزات سمَّمتهُ. الَّا انَّ الجهاز الحيواني يفرز ايضًا من جهتهِ مواد أُخرى هي كترياق لهذا السمّ تبطل مفعولهُ ولذلك يدعونها انتيتوكسين اي دافعة السم (antitoxine). فيقوم بين الخصمين حربٌ عوان تكون فيها الغلبة لمن ظفر بعدوّهِ فتارةً تكون الدورة على الحيوان فيموت وتارةً يغلب الحيوان فيطش بعدوّهِ ويشتّت شملهُ

وهذه بعض تفاصيل تبيّن ما احاط بهِ علم المحدثين من هذا القبيل: كلّ يعلم

ان الدم يتركب من اصلين هما المائع الابيض والكريات الدموية . والمائع الابيض ينقسم الى قسمين اعني الفبرين (fibrine) التي توجد متحللة في الدم المبسوط وتتجمد عند جموده على شكل ليفي ثم المصل الذي هو سائل ابدًا ويكون ابيض عند سيلانه من الجرح تراهُ يجري ولو تجمدت الفبرين عند مسيلها الهواء وسدَّت بشبكها الدقيق الباب في وجه الكريَّات الدموية . ثم انَّ الكريَّات على قسمين كريَّات حُمر وكريات بيض يدعونها لوكوسيت (leucocytes) لبياض لونها وهي اكبر من الكريَّات الحمر واكثر استدارةً . ويدعونها ايضًا فاغوسيت (phagocytes) اي المبتلعة للاجسام الجامدة دلالةً على احدى خواصها العجيبة التي نذكرها

فاذا أشهر المكروب الوبائي الحربَ على جهاز الجسم تعدَّت لهُ الكريَّات البيض ودافعت عن المكان كحرَّاس نشيطين . وذلك بطريقتين : الاولى بان تتسارع الى ساحة الوغى من كل جهات الجسم فتحيط بجيش العدوّ لتردَّ غاراته وتلتهم المفرزات السامة التي ينفثها المكروب الوبائي . والثانية بان تفرز هي ايضًا موادَّ ترياقيَّة (cytases) تكرّ على العدوّ ولا تزال تعمل في سمّهِ حتى تلطّف قوَّتهُ وتبطل مضرَّتهُ وتهضمهُ هضمًا في وسط خلاياها

ولنا دليل بيّن على ذلك فانَّ المكروبات في عدَّة امراض وبائيَّة لا بأس منها اذا اصابت قسمًا من الجسم محضنًا بهذه الكريَّات الدافعة . مثال ذلك مكروب الهواء الاصفر الذي لا يُلحق اذًى بالمرء اذا جُعل تحت جلد الانسان لانهُ يجد ثمَّة هذه كُريَّات الفاغوسيت التي تكسر شوكتهُ وتبطل غارتهُ اما اذا دخل في الجهاز الهضمي حيث لا وجود لهذه الكريَّات البيضاء فانَّ فتكهُ شديدًا سريع العُقبى وهو يظفر بسهولة بسائر العوائق التي يلقاها في طريقهِ اعني في المعدة والامعاء

واكتشاف هذه الفاعيل قد حدا بالجرَّاحين الى تغيير كلّي في تضميد الجراحات بعد عملياتهم خوفًا من العفونة فانَّهم يسنّون في الجرح التهابًا صناعيًا شديدًا بواسطة موادَّ لا ضرر في استعمالها لكي يحشدوا بذلك فئات عديدة من جيش اللوكوسيت ليقيموها كحاجز منيع بازاء الجراثيم العفنيَّة التي تحاول الدخول في الدم . قال لستر احد مشاهير الجرَّاحين في القرن التاسع عشر : واذا احتشد هذا الجيش الدافع نجا المريض

ولا خوف عليه من غبار الجوّ او الجراثيم العفنيّة لانّ كريّات الدم البيضاء تبطل عملها بلا مراء (١)

وممّا ساعد على درس هذا العالم غير المنظور اكتشاف الآلات الرصديّة المكبّرة التي اظهرت للعيان تلك الخارقات المجهولة. وكان القدماء لا يجهلون انّ الهواء والماء كوطن لعدد لا يحصى من الخلوقات الصغرى الّا انّهم لم يثبتوا مزاعمهم بالاختبار حتى جُهّزت تلك العدسيّات التي اماطت الستار عن ذلك العالم الصغير. والعلماء ينسبون الى الهولندي لفنهيك (Leemvenhaeck) في القرن السابع عشر اكتشاف انواع متعدّدة من الكروبات كان وصفها في كتاب دعاهُ « كشف اسرار الطبيعة » طبع في ليدن سنة ١٦٨٠. والصحيح انّ اليسوعي اثناس كيرخر مكتشف الفانوس السحري كان سبقهُ الى هذا الاكتشاف في كلام طويل سبق نقلهُ في المشرق (٢ : ٦٠١) عن كتاب طبعهُ سنة ١٦٥٨ ميلاديّة. ومن ثم ليس بالصواب ان يُقال انّ العلم الحديث هو الذي أضاء بانواره لاوّل مرّة مجاهل هذا العالم الصغير. قال المسيو بليون بعد اثباتهِ قول كيرخر « انّ اسرار المكروب قد برزت بفضل هذا الاب اليسوعي منذ نيّف ومئتي سنة فلا يحقّ لاهل عصرنا ان ينسبوا لهم السبقيّة في هذا الاكتشاف العجيب (١) »

وفي اواسط القرن الثامن عشر سعى الجرماني اوتو فردريك مولر بعد اكتشاف المجهر ان يقسم هذه المكروبات الى اقسام منسوقة وينظّم هذه الكائنات الصغرى التي لم يخصها الطبيعي لينّاي بنظرهِ ودرسهِ كما فعل في سائر المواليد الطبيعيّة. ثم بقي علم البكتريولوجيا في طفولتهِ دون ان يترقّى ترقيًا يُذكر رغمًا عن اختبارات دوجاردين (Dujardin). بل لم يخطر على بال احد من العلماء (سوى كيرخر ولينّاي) انهُ يوجد بين هذه المكروبات وما يطرأ بجوارها من الطوارئ نسبة فاعل الى مفعول

وكان الله قد اعدّ لتبيين هذه الحقائق بنوع جليّ لاحد العلماء الفرنسيين ألا وهو العلامة پاستور الذي اثبت انّ سبب الاختمارات والفسادات انّما هو نموّ هذه المكروبات والنقاعيّات وقد اظهر ذلك لاوّل مرّة في مقالةٍ كتبها عن اختمار الحليب فوضع المبادئ

---

١) راجع المجلّة العلمية L'art de guérir et la science, *Rev. Scient.*, 1896, 4e Série. VI p. 481

٢) راجع H. Baillon: *Traité de Botanique médicale*, *Paris*. 1889, p. 210

الصادقة التي يستند اليها اليوم عالم البكتريولوجيا. ثم عمّم هذه المبادئ وبيّن صحتها في الاختبارات أخرى الى ان انشأ في ذلك علماً متين الاساس. وقام من بعده داڤان (Davaine) فواصل الاختبارات ووضع اصول درس الامراض المكروبية. وكان في اثناء ذلك العالمان كوز (Coze) وفلتز (Feltz) اتصلا سنة ١٨٧٢ الى ان قررا انّ الفساد الذي يصيب الدم البشري في بعض الامراض الوبائيّة انما علتهُ وجود المكروبات في الدم وضربا لذلك مثلاً باهراً في تسمّم الدم (septicémie) السيّ العقبى

ثم خصّوا هذه الدروس بمرض اخر وهو الجمرة وبيّنوا بياناً لا يُبقي من بعده ريباً انّ اصل هذا الداء من مكروب خصوصي. وقد اشتهر بهذه الابحاث علماء مبرّزون كپاستور وكوخ وجعلوا ابحاثهم كرقاة لابحاث أخرى

ومذ ذاك الحين اخذ علم البكتريولوجيا يترقّى ترقياً عجيباً والاكتشافات تتوالى يوماً بعد يوم حتى يصعب ضبطها لكثرتها. وهذا هذو العالمين المشار اليهما عدد لا يحصى من ارباب المعارف وافرغوا اقصى الجهود في توسيع نطاق هذه العلوم لاسيّما في فرنسة والمانية فشاعت اسماؤهم وانتشرت اعمالهم. ومنّ يمشي في مقدمتهم اصحاب مكتب پاستور في باريس لهم مجلّة خصوصيّة تفيد الجمهور في اوقات معلومة عن نتائج مختبراتهم في هذا العالم الجديد وتدوّن اكتشافاتهم المتلاحقة

ومما لحظوهُ انّ الجراثيم الوبائيّة في بعض الادواء تعمل في انسجة الجسم الى ان تتلفها في آخر المرض. وفي امراض غيرها وهو الغالب لا تعمل المكروبات في الانسجة بذاتها بل بما تفرزهُ من المواد السامّة وتنفثهُ في الجسم. وربّما تلفت هذه الجراثيم المكروبيّة الا انّ سمها لا يزال يؤثر في المسموم حتى يقتلهُ بعد موت القاتل

هذا وكما انّ الداء الوبائي يمكنهُ ان يفتك بالمريض بعد موت المكروب الذي علّلهُ فكذلك يمكن وجود الجراثيم المعدية في جسم من كان سليم البنية تامّ العافية. بل يحسن القول على وجه الاجمال انّ لا احد منّا يخلو من جراثيم وبائية عديدة الّا انها لا تأتي بأدنى اعدم وجود الشروط اللازمة من زمان او مكان او استعداد طبيعي في الجسم لانتشارها وفتكها فيه. فقي تركيب الجسم وطبيعته اذن ما يقيهِ من شرّ هذه الاوبئة ومعرّتها وذلك ما يدعونهُ القوّة الدافعة او الواقية (immunité) من الامراض المعدية وليس كلامنا هنا عن البلاد التي لحسن موقعها وطيب هوائها لا تفشو فيها العدوى

فانَّ ذلك عرضٌ . وانما كلامنا عن قوَّة تكون في الانسان لردّ غارات هذه الجراثيم الوبائية والنجاة من شرها

وهذه القوة الواقية على طريقتين لا بدَّ من التمييز بينهما لادراك ما سيأتي قريباً فمنها ما تكون واقية من المكروب نفسه (immunité antimicrobienne) فتمنع دخوله وانتشاره في البدن ومنها ما تكون قوَّتها ترياقيَّة (immunité antitoxique) فتبطل ما يفرزهُ المكروب بعد دخوله في جسم الحيوان من المواد السامَّة

وكذلك هذه القوة الواقية تكون اما غريزيَّة متولدة مع الطبيعة تجعل الانسان من نفس طبعه منافياً لاحد الامراض الوبائيـة غير قابل لهُ . واما مكتسبة وذلك اذا أُصيب الانسان بمرض معدٍ وشفي منهُ فانَّ جسمهُ يكتسب بعـدئذٍ قوَّة تقيه من هذا المرض عينه وقاية تامَّة او جزئية . ويمكن أن تنال هذه القوَّة الدافعة بطريقة اصطناعية بالتعليم وذلك بان تؤخذ مستنبتات المكروب فتُدخَل الجسم ملطَّفةً . وهذه الطريقة الصناعية هي الاتقاء (immunisation) . وفي الكلام التالي نفحص عن كل هذه الوسائل التي تردّ عن الجسم مضارّ الاوبئة او تبطل مفاعيلها

٢ القوَّة الغريزيَّة الواقية من الامراض الوبائية

انَّ هذه القوة التي تقي المخلوقات الحيَّة من بعض المكروبات المضرَّة شائعةٌ في الطبيعة فانَّ بعض الدويبات الصغيرة من النقاعيات (infusoires) لا يعمل فيها عدد وافر من المكروب المُعدي فانَّها تفرز سوائل تقي بها اجسامها من عدوى المكروبات بل تعمل سوائلها هذه في المكروب فتحلّلهُ وهو لا ينجو من فتكهـا الَّا بغلاف يقي نفسهُ منها

وكذلك في الملك النباتي فانَّ كثيرًا من النباتات يحـدق بها غلافات متينة تحترز بها من مضارّ المكروب . ولها ما عدا ذلك مفرزات يمكنها تغيير خواصّها الطبيعية والكيموية على حسب حاجتها لردّ فتكات عدوّها .

وهذه القوة الواقية من الامراض الوبائية هي في الحيوان اعمّ واقوى فانَّ الذين يفحصون جسم الحيوان يجدونهُ مسلَّحاً بيد الطبيعة عينها لدفع الحمّيات وسمومها بل لاتقاء كل الموادّ السامَّة عموماً وان لم يكن مصدرها المكروبات كما سترى

وفي الانسان ضروب من الجراثيم الوبائية كالامراض الزهرية والحمّى النفاطية (scarlatine) والجرب لا يمكنها ان تعدي البهائم (١ . وكذلك تصاب الحيوانات الداجنة بامراض وبائية قاتلة لا تعمل في الانسان البتّة

ولا يحسبنّ القارئ انّ الجسم الذي لا تؤثر فيه مكروبات الامراض المعدية ينجو ايضاً من سمّ هذه المكروبات ظنّاً منه انّ الجراثيم الوبائية انّما تعمل خصوصاً بسمها . كلا فان الامر ليس بمطلق وان وُجدت اجسام تمتنع من المكروب ومن سمّه معاً فانّ الاختبارات بيّنت ايضاً ان من الاجسام ما لا تفعل فيها الجراثيم المعدية امّا السموم المفرزة منها فانّها تؤثر فيها وتقتلها . مثال ذلك الضفدعة لا يُصيبها مكروب الهواء الاصفر باذى امّا اذا حقنتها بسمّ هذا المكروب (toxine cholérique) تميتت . وكذلك الانسان فانّ قوّته الدافعة للباشلوس السلّ اعظم منها في الخنزير الهندي (cobaye) امّا السمّ الذي يفرزه هذا الباشلوس فانه اشدّ فعلاً في الانسان منه في الخنزير المذكور . فلا بدّ اذن من التمييز بين اتقاء المكروبات المعدية والسموم المفرزة منها . والقوّة المنجية من احدهما ممتازة عن القوة الواقية من الآخر

واعلم انّ الانسان والحيوان الذين نالا قوّة واقية من بعض الامراض الوبائية لا تعمل فيهما المكروبات وان كثرت وربّما استطاعت طبيعة الانسان والحيوان ان تحلل هذه الجراثيم وتلغيها بالتمام (لهُ بقية)

الأحداث الكتابية في شعراء الجاهلية

بحث للاب لويس شيخو اليسوعيّ مدرس الآداب العربية في المكتب الشرقي

انّ من يسرّح الابصار في رياض الشعر الجاهليّ لا يكاد يجد في شذراته التي نجت من ايدي الضياع الّا شيئاً يسيراً ممّا يفيدنا عن اديان العرب ومعارفهم الدينية . وقد كنّا سعينا في اثناء مطالعاتنا ان ندوّن ما عثرنا عليه من ذلك رغبةً في تعريف احوال

١) الّا انّ البعض قد تمكّنوا آخراً ان يُعدوا الفرود بمكروب السيفيليس

اهل الجاهلية وما شاع بينهم من آداب الآخرة. واليوم قد احببنا ان نقتطف من هذا المجموع نبذةً نودعها ما وجدناهُ من الشعر القديم محتويًا على أحداث الاسفار المقدسة كتكوين العالم وخلقة الانسان الاول مع ما جرى للآباء الاولين والانبياء المعظمين متتبعين في ذلك التاريخ المقدس واطواره جيلًا بعد جيل الى ظهور السيد المسيح لذكرهِ السجود مع بيان المصادر التي اخذنا عنها

١ تعريف الخالق ووحدانيته وصفاته الالهية

نبتدئ بذكرهِ عزَّ وجلَّ مثبتين بعض ما ورد في الشعر القديم من اوصاف الذات الالهية. فمن ذلك قول زيد بن عمرو:

الى الله أُهدي مدحتي وثنائيا وقولًا رصينًا لا يَني الدهرَ باقيا
الى الملك الأعلى الذي ليس فوقهُ إلهٌ ولا ربٌّ سواهُ مدانيا (١

وهو القائل (راجع سيرة الرسول لابن هشام ص ١٤٥ والاغاني ٣: ١٦)

أربًا واحدًا ام ألفَ ربٍّ ادينُ اذا تقسَّمتِ الامورُ
ولكن أعبدُ الرحمٰن ربّي ليغفر ذنبيَ الربُّ الغفورُ

ومما قال ورقة بن نوفل في التوحيد (راجع الاغاني ٣: ١٤ وتاريخ الاسحاقي الكبير نسخة باريس ص ٨٨ الخ):

لقد نصحتُ لاقوامٍ وقلتُ لهم انا النذيرُ فلا يغرُرْكمُ احدُ
لا تعبدنَّ الهًا غيرَ خالقكم فان دعوكم فقولوا ينتا حدَدُ (٢
سبحان ذي العرش سبحانًا يعادلهُ (٣ ربُّ البريَّة فردٌ واحدٌ صمَدُ
مسخَّرٌ كلّ ما تحت السماء لهُ لا ينبغي ان يناوي ملكهُ احدُ
لا شيء مما ترى تبقى بشاشتهُ يبقى الالهُ ويودي المالُ والولدُ (٤

وقال ايضًا (راجع الاغاني ٣: ١٦ ص)

ادينُ لربٍّ يستجيبُ ولا أرى ادينُ لمن لا يسمعُ الدهرَ واعيا
اقولُ اذا صليتُ في كل بيعةٍ تباركتَ قد اكثرتَ باسمك داعيا (٥

---

١) هذه الابيات وردت في كتاب البدء والتاريخ (١: ٦٣) المنسوب لابي زيد احمد بن سهل البلخي (ed. Cl. Huart, 1899-1903). وقد ورد البيت الاول مصحفًا على هذه الصورة:

الى الله أُهدي مدحتي وثنايا وقولًا رصينًا لا بني الدهر باقيا

(راجع ايضًا سيرة الرسول لابن هشام ص ١٤٦ وخزانة الادب ٤: ٢٤٣)

٢) الحدَد المنع. ويروى: دوننا جَدَدُ (٣ ويروى: سبحانًا يدوم لهُ. ويسود لهُ

٤) ويروى: ويردي المالُ

٥) قال في الأغاني: يقول قد خلقتَ خلقًا كثيرًا يدعون باسمك

ومن أبدع ما قيل في صفاته تعالى قول امية بن ابي الصلت (راجع مجاني الادب ٨:٥ وقصص الانبياء للثعلبي ص ٢٠٩ وكتاب البدء والتاريخ ١:١٨٣)

لكَ الحمدُ والنعماءُ والملكُ ربَّنا فلا شيء اعلى منكَ مجداً وأمجدُ (١
مليكٌ على عرش السماء مهيمن لعزَّتهِ تعنو الوجوهُ وتسجدُ
عليهِ حجابُ النور والنورُ حولَهُ واطارُ نورٍ حولهُ يتوقدُ
فلا بصرٌ (٢ يسمو اليهِ بطرفهِ ودونَ حجاب النور خلقٌ مؤيَّدُ

وهي قصيدةٌ طويلة نقلناها في مجاني الادب وفي شعراء النصرانية عن كتاب مخطوط كان لدى الطيب الذكر السيد البطريرك عبد يشوع خيّاط

٢ ذكر السماء

وفي الشعر القديم فضلاً عن ذكر صفاتهِ سبحانهُ عزَّ وجلَّ اقوال جيدة في مقامهِ تعالى في السماء وما فيها من المحاسن البديعة. فمن ذلك قول امية بن ابي الصلت يصف الدار العلويَّة (كتاب البدء والتاريخ ١:١٦٥)

مجدّوا الله وهو للمجدِ اهل ربُّنا في السماء امسى كبيرا
ذلك المنشئُ الحجارة والمر نى واحياهُمُ وكان قديرا
بالبناء الاعلى الذي سبق النا سَ وسوّى فوق السماء سريرا
شرجعاً (٣ لا ينالهُ بصرُ النا سِ ترى دونهُ الملائك سورا (٤

وقال يصف السماء وكواكبها من قصيدةٍ اثبتناها في مجموعنا شعراء النصرانية (ص ٢٦٦)

بناها وابتنى سبعاً شداداً بلا عَمَدٍ يُرَيْنَ ولا رجالِ
وسوَّاها وزيَّنها بنورٍ من الشمس المضيئة والهلالِ
ومن شهبٍ تلألأ في دجاها مرامیها اشدُّ من النصال

وهو القائل ايضاً (الثعلبي ص ١٥):

إِذَا قِيلَ مَنْ رَبُّ هٰذِي السَّمَا فَلَيْسَ سِوَاهُ لهُ يضْطَرِبْ
وَلَوْ قِيلَ رَبٌّ سِوَى رَبِّنا لَقَالَ ٱلْعِبَادُ جَمِيعاً كَذِبْ

---

١) وروى في قصص الانبياء (ص ٢٠٦: والفضلُ ربُّنا . . . جدًّا وامجدُ
٢) وفي كتاب البدء (١:١٨٣): ولا بشرٌ
٣) الشرجع الخشبة الطويلة المربَّعة يريد بها العرش والسرير
٤) في الاصل: صُورا ونقطتُهُ تصحيفاً. والمعنى ان الملائكة امامهُ كسور يحرسونهُ

٣ ذكر الملائكة ومراتبهم واعمالهم

واجلّ ما تحتوي السماء من بعده تعالى الملائكةُ والارواح القدسية التي تكرّر ذكرها في الاسفار الالهية. ولشعراء الجاهلية اقوال في وصفها منها قول أُميّة بن أبي الصلت (كتاب البدء والتاريخ ١: ١٦٩)

يتنابُهُ المتصفّون بسجرةٍ (١ في الف الف من ملائك تحشدُ
رسلٌ يجرّبونَ السماء بأمره لا ينظرون ثواه من يتقصّدُ
فيهم كأذرب الريح بينا ادبرتْ رجعتْ بَرادي وجهها لا تكردُ
حذرٌ مناكبهم على اكتافهم زِفٌّ (٢ يزفّ جمم اذا ما استجمدوا
واذا تلاميذ الاله تعاونوا غلبوا ونشّطهم جناحٌ ممتدُ
نهضوا باجنحةٍ فلم يتراكلوا لا مُبطئٌ منهم ولا مستوغدُ

وقد قال ايضاً في قصيدته الدالّية السابق ذكرها يصف الملائكة وصفاً جميلاً ويفصّل اعمالهم قدّام عرشه تعالى (مجاني الادب ٥: ٩):

ملائكةٌ اقدامهم تحتَ عرشهِ بكفّيهِ لولا الله كلّوا وابلدوا
قيامٌ على الاقدام عانينَ تحتهُ فرائصُهم من شدّة الخوف تُرعَدُ
وسبطٌ صفوفٌ ينظرونَ قضاءهُ يصيخون بالاسماع للوحي رُكّدُ
امينٌ لوحي القدس جبريلُ فيهمِ وميكالُ ذو الروحِ القوي المسدّدُ
ورؤساءُ ابوابِ السماواتِ دونهم قيامٌ عليها بالمقاليدِ رُصّدُ
فنِعمَ العبادُ المصطفَوْنَ لأمرهِ ومن دونهم جندٌ كثيفٌ مجنّدُ
ملائكةٌ لا يفترون عبادةً كروبيّةٌ منهم ركوعٌ وسُجّدُ
فساجدهم لا يرفعُ الدهرَ رأسهُ يعظّم ربّاً فوقهُ ويمجّدُ
وراكعهم يحنو لهُ الدهرَ خاشعاً يردّدُ آلاء الاله ويحمدُ
ومنهم مُلفٌّ في الجناحَيْنِ راسهُ يكاد لذكرى ربّهِ يتفصّدُ
من الخوفِ لا ذو سأمةٍ بعبادةٍ ولا هُوَ من طول التعبُّد يجهَدُ
ودونَ كثيفِ الماء في غامضِ الهوا ملائكةٌ تنحطُّ فيهِ وتصعدُ
وبينَ طباقِ الارض تحت بطوخا ملائكةٌ بالامر فيها تردّدُ
فسبحان من لا يعرفُ الخلقُ قدرَهُ ومن هو فوق العرشِ فردٌ موحّدُ

ولهُ في ملائكة السفليّات قولهُ (لسان البلاغة ٢: ١٩٦)

---

١) في الاصل: يتنابه المتصفون بسجرة. ونظنّها رواية مصحّفة

٢) الزِفّ بالكسر صغير الريش اراد به اجنحتهم. وقد ضُبط بالاصل بضمّ اوّله

وتحت كعب الماء في باطن الثرى ... لاتكة تنحط فيه وتسمع

ولهُ (لسان العرب ١٥ : ٢٠٩) :

وفيها من عباد الله قومٌ ... لاتكةٌ ذُلّلوا وهم صعابُ

وقال يذكر السارونيم والحيوانات الاربعة التي وصفها حزقيال (كتاب البدء ١ : ١٦٨ وعجائب المخلوقات للقزويني ص ٥٦) :

حُبس الشرائل الصوافي تحتهُ ... لا واهنٌ منهم ولا مستوغدُ

رجلٌ وثورٌ تحت يُمنى رجله ... والنسرُ للبسرى وليثٌ مُلبِدُ (١

٤ الخليقة ونسبتها الى الخالق

وكذلك قد افاض الشعراء الجاهليون في وصف الخليقة ونسبتها الى الخالق جلّ جلالهُ . قال زيد بن عمرو بن نفيل (الاغاني ٣ : ١٧ وسيرة الرسول لابن هشام ١٤٨ وكتاب البدء ١ : ٧٥ الخ)

واسلمتُ وجهي لمن أسلمت ... لهُ الارض تحملُ صخرًا ثقالا

دحاها فلمّا رآها استوت ... على الماء ارسى عليها الجبالا

واسلمتُ وجهي لمن أسلمت ... لهُ المُزنُ تحمل عذبًا زلالا

اذا هي سيقت (٢ الى بلدةٍ ... اطاعت فصبّت عليها سجالا

وقال امية بن ابي الصلت (شعراء النصرانية ٢٣٥ وكتاب الاضداد ٥١) :

الحمدُ لله الذي لم يتخذ ... ندًّا (٣ وقدّر خلقهُ تقديرا

وغا لهُ وجهي وخالقي كلّهُ ... في الخاشعين لوجهه مشكورا

وقال في تكوين الارض (مجاني الادب ٥ : ٥) :

وشقّ الارضَ فانبجست عيونًا ... وأنهارًا من العذب الزُلالِ

وبارك في نواحيها وزكّى ... بها ما كان من حرثٍ ومالِ

فكلٌّ مسيّرٍ لا بُدَّ يومًا ... وذي دنيا يصير الى زوالِ

ويفنى بعد بدأتهِ ويَبلى ... سوى الباقي المقدّس ذي الجلالِ

وقال ايضًا (مجاني الادب ٥ : ٩) :

---

١) رواهُ في كتاب البدء (ص ١٦٨)

رجلٌ وثورٌ تحت رجل يمينهِ ... والنسرُ للأخرى وليثٌ مرصدُ

٢) رواها في كتاب البدء (ص ٧٦) : سوقت ٣) ويروى : ولدًا

هو الله باري الخلق والخلق كلهم ... إماء لهُ طوعاً جميعاً وأعبُدُ
تسبحهُ الطير الجوانحُ في الحفى ... واذ هي في جوّ السماء تصعّدُ
ومن خوف ربّي سبّح الرعد فوقنا ... وسبّحهُ الاشجارُ والوحشُ أبّدُ
وسبّحهُ الثبانُ والبحر زاخراً ... وما ضمّ من شيء وما هو مُقلدُ (١
واني يكونُ الخلقُ كالخالق الذي ... يدومُ ويبقى والخليقةُ تنفدُ
وليس لمخلوقٍ من الدهر جدّةٌ ... ومن ذا على مرّ الحوادث يخلدُ
وتفنى ولا يبقى سوى الواحد الذي ... يُميتُ ويحيي دائباً ليس يجمدُ

وله ايضاً في تكوين الحيوانات (كتاب الحيوان للجاحظ Ms. de Vienne, fl. 397[r])

خلقَ النحل معصراتٍ تراها ... تقصفُ اليابساتِ والخضورا
والتماسيحَ والسنادلَ (٢ والآ ... ل شتّى والرئمَ والصفورا
وصواراً من الوحوش عيراً ... ونياماً صواحباً وحميرا
واسوداً عواديا وفيولاً ... وسباعاً والنمل والخنزيرا

وقال عديّ بن زيد العباديّ يصف أيام الخليقة (كتاب البدء ١ : ١٥١)

اسمع حديثاً كي يوماً تجاوبهُ ... عن ظهر غيبٍ اذا ما سائلٌ سألا
أن كيف أبدى الهُ الخلق نسئتهُ ... فينا وعرّفنا آياتهِ الأُوَلا
كانت رياحاً وماء ذا عُرانيةٍ ... وظلمةً لم يدع فتقاً ولا خللا
فأمر الظلمةَ السوداء فانكشفت ... وعزّل الماء عمّا كان قد شغلا
وبسّط الارض بسطاً ثم قدّرها ... تحت السماء سواءً مثل ما فعلا
وجعل الشمس فصلاً (٣ لاخفاء به ... بين النهار وبين الليل قد فصلا
قضى لستّة أيّام خلائقهُ ... وكان آخرُ شيء صوّر الرجلا

٥ تكوين الانسان وحلولهُ في جنّة عدن ومعصيتهُ

ولهم ايضاً اقوال في خلقة الانسان وسكناهُ في جنّة عدن وتجربة الحية لحوّاء وسقوط الابوين الاوّلين ما نصهُ. قال عديّ بن زيد في القصيدة السابقة يذكر شأن خلقة آدم ومعصيتهُ (كتاب الحيوان للجاحظ (Ms. de Vienne, fl. 213[r]

١) رواهُ في لسان العرب وفي اساس البلاغة في مادّة قلد. قال في الاساس: اقلد البحر على خلق كثير أرتج عليهم واطبق لمّا غرقوا فيه. وقال في اللسان: أقلدُ ضمّ عليهم اي غرّقهم كأنهُ اغلق عليهم وجعلهم في جوفهِ. ويروى: والبحر زاخرٌ ٢) السندل نوعٌ من الطير
٣) في الاصل معيراً وهو تصحيف فضلاً عن كسر الوزن

قضى لستة ايام خليقته وكان آخرها أن صوّر الرجلا
دعاهُ آدم صوتاً فاستجاب لهُ بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا
سُمّيتَ اورثهُ الفردوسَ يعمرها وزوجةٌ صنعةٌ من ضلعهِ حملا
لم ينهَهُ ربّهُ عن غير واحدةٍ من شجر طيّبٍ ان شمّ او اكلا
تعمّدا ثلثي من اكلها نُحياً بامر حوّاء لم تأخذ لهُ الدغلا
كلاهما خاط اذ بدّت لبوسهما من ورق التين ثوباً لم يكن غزلا
فكانت الحيّة الرقشاء اذ خُلقت كما ترى ناقةً في الخلق او جملا
فلاطها الله اذ اغوت خليقتهُ طول الليالي لم يحمل لها أجلا
تمشي على بطنها في الدهر ما عمرت والقرب تأكلهُ حزناً وان سهلا (١
فأتبعا (كذا) ابوانا في حياتهما ووجدا الجوع والاوصاب والدلا
واوتيا الملك والاكليل تقراهُ نشفي بحكمتهِ احلامنا عللا
من غير ما حاجةٍ الّا ليجعلنا فوق البرية اربابا كما فعلا

وروى العصامي في تاريخهِ الموسوم بسمط النجوم العوالي في انباء الاوائل والتوالي لعدي بن زيد ابياتا اخرى في تجربة ابليس والحية (نسخة مكتبتنا الشرقية ص ١٩):

سعى الرجيمُ الى حوّى بوسوسةٍ غوت بها وغوى معها ابو البشرِ
خلقانِ من مارجٍ انشا خليقتهُ وآخر من تراب الارض والمدرِ
انشاهما لطباع فخالفتهُ ابليس عن امرهِ للحين والقدرِ
فأبلس الله ابليساً واسكنهُ (٢ داراً من الخلد بين الروض والشجرِ
فاغتاظ ابليس من بني ومن حسدٍ فاستال للحية الرقطاء والطيرِ (٣
فدخلاهُ بأيمانٍ مؤكّدةٍ اعطاها بيمين كاذبٍ غدرِ
هناك سار الى حوّا بوسوسةٍ اردت بشرّها معها ابا البشرِ
فأهبطا في معاصيهم وكلّهم تأبى الخلودَ فقيدُ العين والاثرِ
واهبط الله ابليساً واوعدهُ ناراً تلهّبُ بالاسعار والشررِ
وانزل الله للطاووس وخمّتهُ من صوته ورمى رجليهِ بالذكرِ
واعقب الحية الحسناء حين عقت (٤ مسح القوائم بعد السعي كالبقرِ
واعقب الله حوّا بالذي فعلت بالطمث والطلق والاحزان والفكرِ

٦ بنو آدم

وقد عرف شعراء العرب في الجاهلية اولاد آدم وقصّة ولديهِ الاوّلين والدليل على

(١ من مزاعم بعض الأقدمين ان الحيّة قبل معصية آدم كانت ذات اربع قوائم فمُسخت قوائمها وزحفت على بطنها (٢ اسكنهُ اي الانسان (٣ يريد الطاووس والعرب يزعمون ان ابليس استعان به ليخدع الانسان فسخهُ الله بتغيير صوته (٤ عقّت مخفّف عقّت

ذلك ابيات جعلوها على لسان آدم وحوّاء يرثيان بها ابنهما هابيل بعد ان قتله قائين وهم يدعونهُ قابيل. وقد قال البعض شططاً اذ نسبوا لآدم عينه هذا الشعر الّا انهُ لا يُنكر كونهُ من الشعر الجاهليّ تراهُ مذكورًا في اقدم التآليف العربية (راجع المشرق ٦ : ٤٩٢ وتاريخ الطبري ١ : ١٤٦ وقصص الانبياء للثعلبي ٣٩ ومروج الذهب للمسعودي طبعة باريس ١ : ٦٥ وتاريخ الخميس ١ : ٦١ الخ):

تغيّرت البلاد ومن عليها فوجهُ الارض مغبرٌّ قبيحُ
تغيّر كلُّ ذي حسن ولونٍ وقلَّ بشاشةَ الوجهُ الصبيحُ
وقابيلٌ اذاق الموت هابيلَ واحزنا لقد فُقد المليحُ
وما لي لا اجود بسكب دمعي وهابيلٌ تضمّنهُ الضريحُ
وجاورنا عدوٌّ ليس يغفى لبينٌ لا يموتُ فنستريحُ (١

ونسبوا لحوّاء جوابًا على هذه الابيات:

دع الشكوى فقد هلكا جميعًا جلالك ليس بالسنن الربيحِ (٢
وما يُغني البكاء عن البواكي اذا ما المرء غُيّب في الضريحِ
فبكِّ النفسَ منكَ ودعْ سواها فلستَ مخلّدًا بعد الذبيحِ (٣

ثم نسبوا لابليس قولهُ لهما:

تنحَّ عن البلاد وساكنيها ففي الجنّاتِ ضاق بكَ الفسيحُ (٤
وكنتَ بها وزوجك في رخاء وقلبك من اذى الدنيا مريحُ
فما زالت مكايدتي ومكري الى ان فاتك السنُ الربيحُ
فلولا رحمةُ الجبّار اضحى بكفك في جنانِ الخلد ريحُ

٧ نوح والطوفان

وممّا ورد ذكرهُ في الشعر الجاهلي الطوفان العرمرم على عهد نوح وما جرى في تلك الطامّة العظمى. قال الجاحظ في كتاب الحيوان (Ms. de Vienne, ff. 212[٥]) كانت العرب تقول: «كان ذلك اذ كان كل شيء ينطق. وكان ذلك والحجارة رطبة» قال امية بن ابي الصلت (راجع ايضًا كتاب البدء ٣ : ٢٥)

---

١) لهذه الابيات روايات لا تحصى. ومنهم من يزيد عليها ومنهم من ينقص منها فاكتفينا بما ترى

٢) رواهُ الثعلبي: بموتٍ ليس باليمن الربيحِ وفي الطبري (١ : ١٤٦):
ابا هابيل قد قُتلا جميعًا وصار الحيُّ كالميت الذبيحِ

٣) ورواية الثعلبيّ: فابكِ النفس واترك في سواها

٤) روى في تاريخ الخميس (١ : ٦٣): في في الخلد ضاق بك الفسيحُ

واذ هم لا لبوسَ لهم تغيهم واذ صمُّ السلامِ لهم رطابُ (١
عشيّة أرسلَ الطوفانُ تجري وقاض الماء ليس لهُ جرابُ
على امواج أخضر ذي جبيكٍ كانَّ سُمار زاخره الهضاب (٢
بآية قام ينطق كلُّ شيء وخان امانةَ الديكِ الترابُ (٣
وأرسلتُ الحمامةُ بعد سبعٍ تدلُّ (٤ على المهالك لا تغابُ
تُلمّس هل ترى في الارض عيناً وعائنهُ بها الماء الببابُ (٥
فجاءت بعد ما ركضت بقطفٍ عليهِ الثأطُ والطينُ الكُباب (٦
فلمّا فرّسوا (٧ الآياتِ صاغوا لها طوقاً كما شُدَّ السحاب
اذا ماتت تورّثهُ بنيها وان تُقتَل فليس لها استلاب (٨
جزى (٩ الله الأجلَّ المرء نوحاً جزاء البرّ ليس لهُ كذابُ
بما حملت سفينتهُ وأنجت غداةَ تاهُ الموتُ القُلابُ
وفيها من اروتهِ عيالٌ لديهِ لا الظماء ولا السغابُ

وقال ايضاً امية في الطوفان (راجع كتاب البدء ٣: ٢٤):

الى ان تفوت المرء رحمةُ ربّهِ وان كان تحت الارض سبعون واديا
كرحمة نوحٍ يوم حلَّ سفينة (١٠ لشيعتهِ كانوا جميعاً ثمانيا
فلمّا استنار الله تنوّر ارضهِ فنار وكان الماء في الارض ساحيا

وقال ايضاً في المعنى (فيه):

---

١) رواه الثعالبي (راجع بلوغ الارب في احوال العرب ٣: ٢٢١): لهم عراةٌ . . . صمّ الصلاب. وروى في كتاب البدء (٣: ٢٥): واذ صخر السلام. وهو تصحيف

٢) هذان البيتان في كتاب البدء (٣: ٢٥)

٣) روى في كتاب البدء: « بانهُ ». وروى في بلوغ الارب: « وكان امانة الديك ». وكلاهما تصحيف

٤) في كتاب البدء: ترلُّ. وهو تصحيف

٥) كذا في كتاب الحيوان. ورواية كتاب البدء (٣: ٢٥): به تيبّس او اضطراب. ونظنُّ الرواية مصحّفة ويروى: وعائنهُ وهو غلط

٦) القطف ما قُطف من الاغصان. والثأط الحمأة. والكُباب الطين اللازب. وفي كتاب البدء: عليهِ الشلط والطين الكثاب. وهو تصحيف

٧) كذا في كتاب الحيوان للجاحظ. وفي كتاب البدء: ظمأ فرّشوا الآيات. ونظنُّ معنى فرّش وفرّس سيّر وفصّل. وروى في كتاب البدء: السغاب. وهو غلط

٨) روى في كتاب البدء: تورّثها. . . وان قُتلت. يزعم العرب ان الطوق الذي يحلّي عُنق الحمامة جزاء لها على امانتها لمّا عادت الى تابوت نوح

٩) وفي كتاب البدء: فجازى: واليت مكسور. وكذلك روى: لهُ

١٠) لعلَّ الاصل سفينهُ جمع سفينة

شيخ ذي الخير من سفينة نوح (١ يوم بادت لبنان من أخراها
فار تنّوره وجاش بماء طمّ فوق الجبال حتى علاها
قيل للعبد سِرْ فسار وبالنسـ ـر على الهول سيرُها وسُراها
قيل فاهبط فقد تناهت بك الفُلـ ـك على راسي شاهقٍ مرساها (لها بقيّة)

مطبوعات شرقية جديدة

I W. Ahlwardt: Sammlungen alter arabischer Dichter, *Berlin* 1902-1903: Diwane der Regezdichter El'aggag u. Ezzafajân (pp. 100+132) = II *Id.*: Die Diwâne der Regezdichter El'aggag u. Ezzafajân (pp. 100+132) = *Id.*: Der Diwân d. Regezdichters Rûba ben El'aggag (pp. 191+234) = IV Paul Schwarz: Der Diwân d. Umar Ibn Abi Rebi'a *Leipzig*, 1901-1902 (pp. 217+126) = V Dr N. Rhodokanakis: Al-Hansâ u. Trauerlieder, *Wien*, 1904 (pp.128) = VI Dr H. Hilgenfeld: Ausgewachlte Gesaenge d. Giwargis Warda von Arbel, *Leipzig*, 1904, (pp 54-86)

دواوين مختلفة فيها الاصمعيّات واراجيز العجّاج والزفيان ورؤبة بن العجّاج
وشعر عمر بن ابي ربيعة ومراثي الخنساء وشعر جرجس ورده الاربلي

لقد نفقت سوق الشعر العربي بين المستشرقين فتراهم منذ نحو عشر سنوات نهضوا لنشر الدواوين القديمة نهضةً عظيمة انست نهضة سلفائهم. وهم لا يكتفون بان ينشروا الجامع الشعريّة بل ينقلونها الى اللغات الاوربية ويقدّمون عليها المقدّمات العلميّة ويروون الروايات المتعدّدة التي يجدونها في المطبوعات والمخطوطات لئلّا تفوتهم فائدة من نشر هذه الكنوز الادبية. وممّن يستحقّون الثناء الطيّب من هذا القبيل الاستاذ الشهير هاوَرْدت الذي كان سبق وطبع المعلّقات وشرحها ثم مجموع دواوين ستّةٍ من الشعراء الاقدمين. وهو قد احرز له آخراً شكر العلماء بثلاثة تآليف جديدة ضمّن (الاوّل) منها القصائد المعروفة بالاصمعيّات التي تُرى في بعض النسخ مضافةً الى المفضّليات. وكنّا قبل عشر سنوات نقلنا هذه القصائد عن نسختي ثمينة ولندن في نيّتنا ان ننشرها مع المفضّليات فسبقنا العلّم هلوردت وأحسن. لكنّنا كنّا وددنا لو نشر ايضاً ما في هذه النسخ المخطوطة من الشروح. وضمّن التأليف (الثاني) ديوان راجزين شهيرين ازهرا بعد ظهور الاسلام بقليل وهما العجّاج والزفيان وقد ضبط اراجيزهما

١) في الاصل « سفينة نوح » ونقّطها هنا تصحيفاً

ضبطاً تاماً وما حبّذا لو اضاف الى طبعته شرح الغريب منها وهو كثير في هذه الاراجيز وارباب اللغة يستشهدون بها في معاجيمهم. اما (الثالث) من هذه التآليف فهو يحتوي شعر رؤبة بن العجّاج الطائر الذكر الذي يُعدّ كاعظم الراجزين وكان قبل نشر هذا الديوان لم يُعرف منهُ الّا قصائد مفرّقة نشر منها بعضها في مصر بهمة الفاضل محمد توفيق البكري. الّا انّ هذه الطبعة الجديدة كاملة مستوفية مضبوطة بالشكل الكامل لا ينقصها شيء من الفوائد الّا بعض شروح على لغوياتها كديوان العجّاج. فنشكر الاستاذ هاورْدت ونخصّ محبّي الشعر العربي على اقتناء مطبوعاته الجديدة

الكتاب (الرابع) يتضمن ديوان شاعر عُرف بانسجام شعره ورقّة نظمه واشتهر في اوّل عهد بني امية ألا وهو عمر بن ابي ربيعة وكان الوطنيُّ الاديب مصباح افندي اللبابيدي سبق الى طبع هذا الديوان في مصر سنة ١٣١١ عن نسخة قديمة وقف عليها الشيخ محمد الزهري الغمراوي. وكأنّ العلماء الاوربيين لم يطّلعوا عليها فقام احدهم وهو المقدام بولس شوارتس وتولّى طبعهُ في ليبسيك على نسختي ليدن والقاهرة وضبطهُ بالشكل الكامل واضاف اليهِ كلّ ما وجدهُ من الروايات والزيادات في كتب أدباء العرب المطبوعة والمخطوطة. ومع انّ للطبعة الاوربيّة مزايا عديدة تفوق بها على الطبعة المصريّة فانّ في هذه بعض روايات حسنة امكن المسيو شوارتس ان يستفيد منها لو اطّلع عليها

الكتاب (الخامس) عنوانهُ بالالمانيّة « الخنساء ومراثيها » وهو عبارة عن مقالة مطوّلة ذات ١٢٨ صفحة بحث فيها الدكتور رودوكاناكيس عن الخنساء وترجمة حياتها وخصائص شعرها في فصول متعدّدة وقد استند في كل ذلك الى الطبعة التي تولّينا نشرها في مطبعتنا الكاثوليكية نقلاً عن عدّة نسخ وذيّلناها بالشروح المسهبة مع ملحقات متعدّدة ومن محاسن هذه المقالة انّ صاحبها أنعم النظر في كل اشعار الخنساء فاستخلص منها معانيها وقابل بينها ثم بنى على هذه المقابلة درساً اجمالياً في مراثي تلك الشاعرة المبرّزة وطرائقها الشعريّة وتفنّنها في رثاء اخويها وبيان مَن استفادت الخنساء منهم بعضَ معانيها وكذلك بحث عن عدّة فوائد تاريخيّة تلتمح اليها الخنساء في شعرها كما انهُ بيّن معتقدها في احوال الموتى في الآخرة. وكلٌّ يرى ما تستدعيهِ هذه الابحاث من دقّة النظر وحسن الادراك ومعرفة التاريخ فنهنّي المؤلف ونتمنّى لو حذا الشرقيون حذوهُ في درس الشعر القديم

اما الكتاب (السادس) فهو للدكتور هلمغلد احد اساتذة كلية بانا اودعهُ منتخبات احد فطاحل الشعراء الكلدان في القرن الثالث عشر وهو يوحنا ورده الاربلي الكاتب الجليل الذي ادخل النساطرة كثيرًا من شعرهِ في طقوسهم الكنسيَّة. وديوان هذا الشاعر لا يزال مخطوطًا مع شهرتهِ. فالدكتور هلمغلد اختار من قصائده تسعًا نشرها في الاصل الكلداني ونقلها الى الالمانيَّة وعلَّق عليها التعاليق اللغويَّة والحواشي التاريخية فضلًا عما صدَّر بهِ كتابهُ من الأبحاث في المؤلف واساليبهِ الشعريَّة ومقامهِ بين الكتبة الى غير ذلك من الفوائد التي تبيِّن فضل الشاعر القديم وتنطق بهمة الاستاذ الذي خصَّهُ بدرسهِ

LA GUÉRISON EN UNE HEURE DE RAZES

كتاب برء الساعة لمحمد بن زكريَّا الرازي

نشرهُ ونقلهُ الى الفرنسيةُ الدكتور ب. كيك مدرِّس الصيدليَّة في مكتبنا الطبي

هو الكتاب الذي نشرهُ المشرق في السنة المنصرمة (٦: ٣٩٥—٤٠٢) فاعاد جناب الدكتور كيك طبعهُ ونقلهُ الى الفرنسية وذيَّلهُ بعدَّة ملاحظات طبية لبيان الموافقة بين الطبّ الحديث والطبّ القديم فنشكر للاستاذ الموما اليهِ همَّتهُ ونحضُّ الاطبَّاء على اقتناء هذه النبذة المستملحة

تنبيهُ الغافل

لحضرة المنوري الفاضل بطرس مبارك الماروني (طبع في بيروت سنة ١٩٠٣ ص ١٠٢)

يتضمن هذا السفر النفيس سبع مواعظ القاها حضرة مدير الدروس في مدرسة الحكمة الزاهرة في كاتدرائية القديس يوحنا في بيروت ايَّام الصوم المبارك سنة ١٩٠٣ وهذه الخطب دينية وفلسفية مما قصد بها حضرة مؤلفها ان يبيِّن ما للدين من المقام الرفيع في الهيئة الاجتماعية ولنشر التمدُّن وتعزيز الآداب مع ثبوت اركانهِ فلسفيًّا. وقد اضاف اليها حضرتهُ خطابين في العبادة لمريم البتول الطاهرة وللقربان الاقدس. فنحض خطباءنا على مطالعة هذه العظات فانهم يسرُّون ولا شك بما يجدون فيها من قوَّة البرهان ومتانة التعبير وسلوك الاساليب المستحدثة في فن الخطابة الدينية. وفي المشرق (٦: ٤٩—٥٩) احدى هذه الخطب اوقفت القرَّاء على فضل صاحبها ل. ش

Rabeau (Gaston) prêtre de l'Oratoire: Le Culte des Saints dans l'Afrique Chrétienne d'après les inscriptions et les monuments figurés. *Paris, Fontemoing*. 1903. pp. 82

قديسو افريقة النصرانية وفقاً للآثار الكتابية والتصويرية

ليس هذا الكتاب تاريخاً لقديسي افريقية ولا بحثاً مدققاً في اكرام النصارى القدماء لاولياء الله في تلك البلاد. وانما هو نظر اجمالي بناهُ المؤلف على ما وُجد من الكتابات والتصاوير والآثار العديدة المكتشفة حديثاً في جهات افريقية وقسمهُ الى ستة فصول بحث فيها عن الكنائس والهياكل المشيَّدة على اسم القديسين ثم عن ذخائرهم واعيادهم ثم عن اكرام عود الصليب وما يختصّ بآثار الفادي ثم عن تعبُّد اهل افريقية للقديسين الشرقيين الذين انتشر اسمهم في بلاد افريقية فكرَّموهم اكراماً خصوصياً ومن جملتهم عدَّة شهداء واولياء شرَّفوا بلادنا السورية. وفي هذا دليل باهر على ما كان قديماً من الاتفاق العجيب بين كنائس الامور رغماً عن بُعدها واختلاف اجناس اهلها. ويا حبَّذا لو سعى احد الوطنيين في تسطير تاريخ القديسين السوريين وانتشار ذكرهم في كل جهات العالم المسيحي

الاب ل. جلابرت

شذرات

جمعيَّة جديدة للآثار والعاديَّات قد عُقدت آخراً في باريس جمعية غايتها تنشيط الحفريَّات ومساعدة الباحثين عن العاديَّات والآثار القديمة في فرنسة وخارجاً عنها. وما كادت هذه الجمعية تتشكَّل حتى انتظم في سلكها عدد عديد من العلماء ومشاهير الاثريين ومحبي التاريخ القديم والآثار الغابرة. والسيو لورو (M^r E. Leroux, Paris, rue Bonaparte, 28) كاتب هذه الجمعية التي تعقد جلساتها في مكتبهِ الشهيرة. وكلُّ من احبَّ الدخول في هذه الجمعية امكنهُ ذلك على يد اثنين من اعضائها بشرط ان يدفع في السنة عشرين فرنكاً. وللجمعية نشرة تُرسل مجَّاناً لكل الاعضاء الذين يحقُّ لهم ايضاً ان يحضروا الحفلات ويدخلوا المعارض الاثريَّة المختصَّة بها. وقد اطَّلعنا على العدد الاوَّل من نشرة الجمعية تحت هذا العنوان

Bulletin de la Société Française de fouilles archéologiques *Paris, Leroux*, 1904, pp. 52

فاستحسنَّا هذا المشروع ولا نشكُّ في انهُ يؤدي عمَّا قليلاً خدمات مذكورة للعلم

شمع عبد يربعام قد لحظ كثيرون من القرّاء اننا اصلحنا في العدد السابق (ص ٤٧١) سهواً فرط فتداركناهُ بعد الطبع واصلحناهُ بقلم الرصاص الّا بعض اعداد كانت توزّعت بالبريد. فالصواب اذن « شمع عبد يربعم » لا « شمع ابن يربعم » وفي العبرانية [illegible] لا « בן » وهو غلط ظاهر لم يَفُتْ كلّ من اطّلع على مقالتنا. وتريد القرّاء علماً انّ حضرة الاب س. رتزفال عاد الى هذا الموضوع في درسهِ الاخير وقابل بين هذه الكتابة وكتابة أُخرى محفورة على خاتم حصل عليهِ البارون اوستينوف (M^r le Baron Ustinow) في يافا ونشر رسمهُ حضرة الاب ه. فنسان الدومنيكي في المجلّة الكتابية (R. B. 1903, p. 603) وفي هذا الخاتم اسم شمع منسوبًا بالعبوديّة للملك « [illegible] » ولعلّك تقول بعد هذا فلم يبقَ شكٌّ بكون « شمع عبد يربعم » المذكور في اثر تلّ المتسلّم كان احد عُمّال الملك يربعام. (قلنا) انّ هذا ليس بقاطع (اوّلًا) لانّ خاتم البارون اوستينوف كتابتهُ احدث تشبه كتابة سلوام التي اثبتناها في المشرق (ص ٤٧٤) وقلنا انّها كُتبت نحو سنة ٧٠٠ ق م. (ثانيًا) لانهُ امكن وجود رجال كثيرين باسم شمع كما انهُ امكن ان يخدم بعضهم ملوك بني اسرائيل. وغاية ما نستطيع اثباتهُ انّ اسم « عبد الملك » كان شائعًا عند العبرانيين وانّهم كانوا يتفاخرون بهِ لدلالتهِ على رتبة سامية كالحاكم او الوالي. امّا « شمع » المذكور في خاتم البارون اوستينوف « كعبد الملك » فانهُ غير شمع الوارد اسمهُ في خاتم تلّ المتسلّم « كعبد يربعام »

هذا واعلم ان جريدة الولاية الرسمية في عددها الاخير افادت بانهُ ظهرت آثار جديدة في تلّ المتسلّم من جملتها حجارة مستديرة للاوزان وللزينة وطواحين يدويّة وآنية مختلفة وغير ذلك ممّا يصرّح عن عظم شأن المدينة القديمة المبنية هناك

داء الحلزون نشر جناب الدكتور البارع الفرد خوري طبيب قضاء كسروان مقالة طبية قدمها للمؤتمر الطبي الجراحي الذي انعقد في مكتبنا في اواسط الجاري. وموضوع كلامه داء الحلزون المنتشر في شمالي لبنان وهو يصيب من ياكلون اكباد الماعز واحيانًا اكباد الضان نيئةً وسببهُ نوع من الدود يستقرّ في الاكباد المذكورة والواقي منهُ الامتناع عن هذه العادة وعلاجه عند من يصاب بهِ المبادرة الى تناول مقيّ. والمقالة بالافرنسية كتبها مؤلفها بفصاحة واعرب فيها عن تدقيق وبحث فنمحضهُ الثناء

أسئلة وأجوبة

س سأل احد كهنة البلدة الافاضل: ١ً هل رقية الحيّات على يد بعض الناس امر ثابت وهل هو طبيعيّ او سحري. ٢ً هل يجوز استطلاع المشوذين والمشوذات كالبصّارات والبرّاحات وضاربي الرمل الخ

رقية الحيات — استطلاع مشوذين والمشوذات

ج نجيب على (الاوّل) انهُ لا ينكر ان لبعض البشر قوّةً طبيعيّةً مركزها في عيونهم وصوت صفيرهم وحُسن مداراتهم تمكنهم من الحيّات بحيث يستخرجونها من اوكارها ويلمسونها ويلاعبونها. وذلك امر قديم تشهد بصحّتهِ التواريخ الصادقة والكتب المقدّسة نفسها. على انّ الحاوين ربّما التجأوا ايضاً الى الشعوذة والمكر امّا بان يخفوا حيّات لا بأس منها في اكمامهم وامّا بان يقتلعوا انياب الحيّات السامّة الى غير ذلك ممّا لا يفطن لهُ الناظرون فيأخذهم العجب من افعال هؤلاء الدجّالين. ثم انّنا لا ننكر انّ السحرة في بعض الاحيان تخذوا الحيّات لغاياتهم الذميمة كسَحَرة فرعون وغيرهم. فان ثبت انّ الحوّاء ساحر فلا يجوز مشاركتهُ في العمل. والجواب عن (الثاني) انّ اعمال البصّارين والبصّارات وضاربين بالرمل هي في الغالب خرافات صبيانية فمن التجأ الى اصحابها خُدع وعاد بصفقة خاسر. هذا فضلاً عن انّ تصديق اقوال هؤلاء الدجّالين والاخذ بكلامهم من الاعتقادات الباطلة المحرّمة من الكنيسة. ولئن وُجد بينهم من يتّخذ السحر لترويج قوله فالامر اشدّ خطراً تحظرهُ الكنيسة على ابنائها وتشدّد النكير ان في استعمالهِ

س وسأل جناب الاديب م. د من سلقية زحلة: ١ً ما هو سبب تأخر الروم عنّا في الحساب الغريغوريّ. ٢ً هل سرّ التثليث ضروري للخلاص

الحساب الشرقيّ وغربيّ — سرّ التثليث

ج انّ سبب تأخر الروم عنّا في حسابهم قد مرّ شرحهُ في المشرق (٣: ٢٢٥—٢٣٠). امّا سرّ التثليث ولئن لم يكن ضرورياً للخلاص فانّهُ من الاسرار التي تقوّي المسيحيّ على حفظ ايمانهِ وتمنحهُ نعمةً خصوصيّةً لردّ تجارب العدوّ. ومن مكّنتهُ الفرصة لقبولهِ وتهاون في ذلك استخفافاً ارتكب خطيئة عظيمة

ل. ش